كأنّها تتخلّل الأعضاء أى تدخل خلالها[١] .

ولا شفاعة : إلاّ بإذن الله . وحقيقتها رحمةٌ منه تعالى شرّف بها الّذى أذن له فى أن يشفع[٢] وهذه الآية مخرجها فى الشّفاعة عامٌّ والمراد بها خاصّ[٣] أى ولا شفاعة للكفار . وقال تعالى : ﴿ فما لنا من شافعين . ولا صديقٍ حميم ﴾ أو ولا شفاعة إلاّ بإذن الله . قال تعالى : ﴿ ولا تنفع الشّفاعة عنده إلاّ لمن أذن له ﴾ وقال : ﴿ ولا يشفعون إلاّ لمن ارتضى ﴾ وقد أثبتت الشّفاعة فى الآخرة مشروطةً بإذن الله ورضاه . وصحّ حديث الشّفاعة الّذى تلقّته الأمّة بالقبول فلا التفات لمن أنكر ذلك[٤] .

نبّهت الآية الكريمة السّابقة إلى الاختلاف بين أتباع الأنبياء وإلى الاقتتال كذلك ، وقد فهم أنّ الاقتتال بين الأتباع بسبب إصرار الفريق الضّالّ على الضّلالة فزاده الله تعالى ضلالاً إلى ضلاله وعمًى إلى عماه ، بينما هدى الله سبحانه وتعالى الّذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحقّ بإذنه إلى الصّراط المستقيم ، ومن ثمّ كان الصّراع بين أتباع الحقّ وأتباع الباطل ، المؤمنين والكافرين ، المسلمين والقاسطين . والمعروف أنّ الصّراع بين الحقّ والباطل أزلىّ وباقٍ ما بقى اللّيل والنّهار ، والمعروف أنّ الجهاد يقوم على دعامتين اثنتين ، الجهاد بالنّفس والجهاد بالمال ، وهذه الآية الكريمة الّتى نحن بصددها تتحدّث عن الإنفاق فى سبيل الله تعالى ، تأمر ببذل المال وتحثّ على إنفاقه .

والآية الكريمة تخاطب الّذين آمنوا باعتبارهم الثّمرة اليانعة النّاضجة لمنهج التّربية القرآنيّة ، خاصّةً وأنّنا نقترب من نهاية سورة البقرة الكريمة أطول سور القرآن الكريم ، وكأنّنا الآن بصدد قطف الثّمرة ، وإنّ من مظاهر ذلك العناية بالمال باعتباره عصب الحياة وباعتباره السّلاح لمن أراد القتال .

وتأمر الآية الكريمة الّذين آمنوا بأن ينفقوا ممّا رزقهم الله تعالى : ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا أنفقوا ممّا رزقناكم ﴾ وهذه الجزئيّة الكريمة تأخذ بسبب من مثل قوله عزّ من قائل[٥] : ﴿ وأنفقوا ممّا جعلكم مستخلفين فيه ﴾ وقوله تعالى[٦] : ﴿ وما أنفقتم من شيءٍ فهو

---

(١) البحر المحيط ٢ / ٢٧١
(٢) تفسير القرطبىّ ص ١٠٧٤ .
(٣) تفسير الطّبرىّ ٣ / ٣
(٤) البحر المحيط ٢ / ٢٧٦ .
(٥) سورة الحديد ٧
(٦) سورة سبأ ٣٩ .

يُخْلِفه وهو خير الرّازقين ﴾ إنّ ربّ العزّة يأمر عباده بأن ينفقوا من المال الّذى آتاهم الله تعالى إيّاه كى يثيبهم فى الآخرة وفى الدّنيا كذلك ، فالمال الّذى ينفقه المرء ابتغاء وجه الله تعالى سيثيبه الله تعالى عليه فى الآخرة ، وسيخلفه عليه فى الدّنيا بالبدل ، كما ثبت فى الحديث : يقول الله تعالى أنفق أنفق عليك . وفى الحديث أنّ ملكين يصبحان كلّ يوم يقول أحدهما : اللّهمّ أعط ممسكًا تلفًا ، ويقول الآخر : اللّهمّ أعط منفقًا خلفًا . وقال رسول الله ﷺ : أنفق بلالاً ، ولا تخش من ذى العرش إقلالاً[١] قال تعالى[٢] : ﴿ والّذين يبتغون الكتاب ممّا ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرًا ، وآتوهم من مال الله الّذى آتاكم ﴾ وقال تعالى[٣] : ﴿ وأنفقوا ممّا رزقناكم من قبل أن يأتى أحدَكم الموتُ فيقولَ ربّ لولا أخّرتنى إلى أجلٍ قريبٍ فأصّدّق وأكُنْ من الصّالحين . ولن يؤخّر الله نفسًا إذا جاء أجلها . والله خبيرٌ بما تعملون ﴾ .

والآية الكريمة تأمر الّذين آمنوا بأن ينفقوا ممّا رزقهم الله تعالى ، من قبل أن يأتى يوم القيامة الّذى لا بيعٌ فيه ولا خلّةٌ ولا شفاعة ﴿ يأيّها الّذين آمنوا أنفقوا ممّا رزقناكم من قبل أن يأتى يومٌ لا بيعٌ فيه ولا خُلّةٌ ولا شفاعة ﴾ والّذى يلفت الانتباه حقًّا هو هذا التّرتيب المعجز لهذه الأمور الثّلاثة بحيث إنّ التّحوّل يكون باطّراد من سهل الوسائل وقريبها إلى صعبها وبعيدها . إنّ معنى البيع ببساطة الافتداء بالمال ، ومعنى الخُلّة الصّداقة ، ومعنى الشّفاعة الاستعانة بجاه الشّفيع عند المشفّع (بكسر الفاء) الّذى يرجى منه قضاء حاجة المشفّع فيه ، وبذلك يتحوّل المشفّع فيه من كونه وتْرًا أى فردًا وواحدًا ، إلى كونه شفعًا أى زوجًا معه آخر . لقد كان قبل الشّفاعة وترًا وهو بالشّفيع شفعٌ أى زوج .

فلنسر مع كلٍّ من هذه الأحوال خطوةً خطوة . إنّ نفى البيع يوم القيامة ، الّذى يراد به نفى قبول مبدأ الافتداء وقبول الفدية بالمال ، يقصد به نفى البدل يوم القيامة وأخذ العوض . وقد عبّر عن ذلك بالبيع باعتبار قبول البدل وأخذ العوض يتجلّى فى البيع بوضوح وباعتبار البيع فى العادة أحبّ من الشّراء بدليل أنّ الآية الكريمة من سورة الجمعة

---

(١) تفسير ابن كثير ٣ / ٥٤١

(٢) سورة النّور ٣٣ .

(٣) سورة المنافقون ١٠ ، ١١ .

وهى تتحدّث عن صلاة الجمعة ووجوب أدائها لغير ذوى الأعذار جماعة تختار من بين عمليّتى البيع والشّراء وهما قوام التّجارة عمليّة البيع تنبيهًا إلى حبّ التاجر الأكثر لها من عمليّة الشّراء لضمان الرّبح غالبًا فى عمليّة البيع وضمان رأس المال قبل ذلك بينما الشّراء إخراج مال ولا ضمان معه لرأس المال فضلاً عن الرّبح . قال عزّ من قائل[١] : ﴿ يأيّها الّذين آمنوا إذا نودى للصّلاة من يوم الجمعة فاسْعَوْا إلى ذكر الله وذروا البيع . ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون ﴾ .

إنّ الآية الكريمة فى سبيل نفى التّعامل بالمال يوم القيامة فى أىّ صورةٍ من صوره نفت البيع ، فليس ثمّة بيعٌ وليس ثمّة شراء ما يراد شراؤه ، وليس ثمّة فدية ، بل ليس ثمّة مالٌ أساسًا .

وإنّما قدّمت الآية الكريمة ماله علاقةٌ بالمال تنبيهًا لما يحدث فى حياتنا الدّنيا من حصولنا على ما نريد عن طريق المال باعتبار ذلك أقصر طريقٍ وأيسر سبيل . وقديمًا قال الشّاعر الأوسىّ الجاهلىّ البخيل أحيحة بن الجُلاح[٢] .

كَـلّ النّـداء إذا نـاديت يخذلنـى إلاّ النّـداء إذا نـاديت يـا مـالى

وحينما تكون ثمّة أشياء لا يمكن الحصول عليها بالمال رغم وجوده ، ففى هذه الحال نلجأ إلى أصدقائنا ونستعين بأخلاّئنا . إنّ هذا هو الّذى نبّهت عليه الآية الكريمة فى حديثها عن الخُلّة بمعنى الصّداقة الخالصة والمودّة الصّادقة . قال تعالى : ﴿ من قبل أن يأتى يومٌ لا بيعٌ فيه ولا خُلّة ﴾ لقد نفت الآية الكريمة الخُلّة فى ذلك اليوم المجموع له النّاس المشهود فى حقّ الكافرين بينما أثبتتها للمتّقين وحدهم آيّة كريمةٌ فى سورة الزّخرف[٣] قال تعالى : ﴿ الأخلاّء يومئذٍ بَعْضُهُمْ لبعضٍ عدوٌّ إلاّ المتّقين . يا عبادِ لا خوفٌ عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون ﴾ .

وحينما تكون ثمّة أشياء لا يمكن الحصول عليها بالمال ولا بالصّداقة وما يلحق بها من

---

(١) سورة الجمعة ٩ .

(٢) ديوان أحيحة بن الجُلاح الأوسىّ الجاهلىّ ص ٧٩ .

(٣) الآية ٦٧ ، ٦٨ .

نسبٍ وقرابة ، ففى هذه الحال نلجأ إلى المرحلة الأخيرة وهى مرحلة الشّفاعة . إنّ الشّفاعة فى حقّ الكافرين ممتنعةٌ ومنفية فى يوم القيامة وهى ثابتةٌ للمؤمنين . والمعروف أنّ ممّا خصّ به المصطفى ﷺ الشّفاعة ، وهى المقام المحمود الّذى أشارت إليه سورة الإسراء . قال عزّ من قائل[١] : ﴿ أَقِمِ الصّلاة لدُلوك الشّمس إلى غسق اللّيل وقرآنَ الفجرِ . إنّ قرآن الفجر كان مشهودا . ومن اللّيل فتهجّد به نافلةً لك عسى أن يبعثك ربّك مقامًا محمودا ﴾ فى صحيح البخارىّ عن ابن عمر قال : إنّ النّاس يصيرون يوم القيامة جُثًا[٢] كلّ أمّةٍ تتبع نبيّها تقول : يا فلان اشفع ، حتّى تنتهى الشّفاعة إلى النّبىّ ﷺ ، فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود[٣] فيشفع هذه الشّفاعة لأهل الموقف ليعجّل حسابهم ويراحوا من هول موقفهم ، وهى الخاصّة به ﷺ ، ولأجل ذلك قال : أنا سيّد ولد آدم ولا فخر[٤] وهذه هى الشّفاعة العامّة . والشّفاعة الأخرى فى إخراج المذنبين من النّار . وهذه الشّفاعة الثّانية لا يتدافعها الأنبياء بل يشفعون ويشفع العلماء[٥] .

وإنّ الّذى بيّن فى الآية الكريمة أنّ المقصودين هم الكافرون هذه الجزئيّة الكريمة الأخيرة . قال تعالى : ﴿ والكافرون هم الظّالمون ﴾ إنّ الكافرين الّذين جحدوا نعم الله تعالى وستروها وتمادوا فى ذلك حتّى انتهوا إلى الإشراك مع الله تعالى غيره مع أنّ كلّ شىءٍ فى هذا الوجود يدلّ على الإله الواحد المستحقّ للعبادة وحده لا شريك له هم الظّالمون الّذين وضعوا الأمور فى غير مواضعها والّذين ظلموا أنفسهم قبل أن يظلموا غيرهم لأنّ وبال الظّلم عائدٌ عليهم ومرتدٌّ إليهم .. عن عطاء بن دينار أنّه قال : الحمد لله الّذى قال : والكافرون هم الظّالمون . ولم يقل : الظّالمون هم الكافرون[٦] .

---

(١) سورة الإسراء ٧٨ ، ٧٩ .
(٢) جُثًا جمع جثوة كخطوة وخطًا : أى جماعات .
(٣) تفسير القرطبىّ ٣٩٢٥ .
(٤) تفسير القرطبىّ ص ٣٩٢٦ .
(٥) انظر تفسير القرطبىّ ص ٣٩٢٦ .
(٦) تفسير الطّبرىّ ٣ / ٤ .

الآيــة رقــم (٢٥٥)

قال تعالى : ﴿ الله لا إله إلاّ هو الحيّ القيّوم . لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم . له ما فى السّماوات وما فى الأرض . من ذا الّذى يشفع عنده إلاّ بإذنه . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم . ولا يحيطون بشيءٍ من علمه إلاّ بما شاء . وَسِعَ كرسيُّه السّماواتِ والأرضَ ولا يئوده حفظهما وهو العليّ العظيم ﴾ .

فضل هذه الآية الكريمة .

الله لا إله إلاّ هو الحيّ القيّوم . هذه آية الكرسىّ سيّدةُ آى القرآن وأعظم آية . ونزلت ليلاً ودعا النّبىّ ﷺ زيدًا فكتبها . وروى الأئمّة عن أبىّ بن كعب قال ، قال رسول الله ﷺ : يا أبا المنذر ، أتدرى أىُّ آيةٍ من كتاب الله معك أعظم ؟ قال قلت : الله ورسوله أعلم . قال : يا أبا المنذر أتدرى أىُّ آيةٍ من كتاب الله معك أعظم ؟ قال قلت : الله لا إله إلاّ هو الحىّ القيّوم ، فضرب فى صدرى وقال : لِيَهْنِك[1] العلم يا أبا المنذر[2] وعن علىّ رضى الله عنه قال : سمعت نبيّكم ﷺ يقول وهو على أعواد المنبر : من قرأ آية الكرسى دبر كلّ صلاةٍ لم يمنعه من دخول الجنّة إلاّ الموت ، ولا يواظب عليها إلاّ صدّيق أو عابد ، ومن قرأها إذا أخذ مضجعه آمنه الله على نفسه وجاره وجار جاره والأبيات حوله[3] ويقول ابن كثير[4] : « هذه آية الكرسى ولها شأنٌ عظيم ، وقد صحّ الحديث عن رسول الله ﷺ بأنّها أفضل آيةٍ فى كتاب الله » وورد أنّها تعدل ثلث القرآن ، وورد أنّ سيّد الكلام القرآن ، وسيّد القرآن البقرة ، وسيّد البقرة آية الكرسىّ . وفضّلت هذا التّفضيل

---

(١) هذا دعاءٌ من التّهنئة وأصله ليهنئك وليهنيك . جاء فى لسان العرب « هنأ » : « والتّهنئة خلاف التّعزية يقال : هَنَأه بالأمر والولاية هَنْأ وهنّأه تهنئةً وتهنيئًا إذا قُلْتَ له ليهنئك . والعرب تقول : ليهنْك الفارس بجزم الهمزة وليهنيك الفارس بياء ساكنة » .

(٢) تفسير القرطبىّ ص ١٠٧٦ وانظر تفسير ابن كثير ١ / ٣٠٤ والبحر المحيط ٢ / ٢٧٧ .

(٣) تفسير القرطبىّ ص ١٠٧٧ وانظر فى تخريج الحديث تفسير ابن كثير ١ / ٣٠٧ .

(٤) تفسير ابن كثير ١ / ٣٠٤ .

لما اشتملت عليه من توحيد الله وتعظيمه وذكر صفاته العلا ولا مذكور أعظم من الله ، فذكره أفضل من كلّ ذكر[١] وفى صحيح البخارىّ من حديث أبى هريرة أنّ قارئها إذا آوى إلى فراشه لن يزال عليه من الله حافظ ولا يقربه شيطانٌ حتّى يصبح[٢] عن أبى هريرة قال : وكلنى رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان فأتانى آتٍ فجعل يحثو من الطّعام فأخذته وقلت : لأرفعنّك إلى رسول الله ﷺ قال : دعنى فإنّى محتاجٌ وعلىّ عيال ولى حاجةٌ شديدة . قال : فخلّيت عنه فأصبحت فقال النّبىّ ﷺ يا أبا هريرة ، ما فعل أسيرك البارحة ؟ قال : قلت يا رسول الله شكا حاجةً شديدة وعيالاً فرحمته وخلّيت سبيله . قال : أما إنّه قد كذبك وسيعود . فعرفت أنّه سيعود لقول رسول الله ﷺ إنّه سيعود فرصدته فجاء يحثو من الطّعام فأخذته فقلت : لأرفعنّك إلى رسول الله ﷺ . قال : دعنى فإنّى محتاجٌ وعلىّ عيالٌ لا أعود . فرحمته وخلّيت سبيله فأصبحت فقال لى رسول الله ﷺ : يا أبا هريرة ، ما فعل أسيرك البارحة ؟ قلت يا رسول الله ، شكا حاجةً وعيالاً فرحمته فخلّيت سبيله . قال : أما إنّه قد كذبك وسيعود . فرصدته الثّالثة ، فجاء يحثو من الطّعام فأخذته فقلت : لأرفعنّك إلى رسول الله ﷺ ، وهذا آخر ثلاث مرّات أنّك تزعم أنّك لا تعود ثمّ تعود فقال : دعنى أعلّمك كلماتٍ ينفعك الله بها . قلت : وما هى ؟ قال : إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسى : الله لا إله إلاّ هو الحىّ القيّوم ، حتّى تختم الآية فإنّك لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتّى تصبح وكانوا أحرص شىءٍ على الخير فقال النّبىّ ﷺ : أما إنّه صدقك وهو كذوب . تعلم من تخاطب من ثلاثٍ يا أبا هريرة ؟ قلت : لا . قال : ذاك شيطان . كذا رواه البخارىّ معلّقاً بصيغة الجزم وقد رواه النّسائىّ فى اليوم واللّيلة[٣] وعن أبى هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال : سورة البقرة فيها آية سيدة آى القرآن لا تقرأ فى بيتٍ فيه شيطانٌ إلاّ خرج منه ، آية الكرسى[٤] فكان عبد الرّحمن بن عوف إذا دخل بيته قرأ آية الكرسىّ فى زوايا بيته الأربع ، معناه كأنّه يتلمسّ بذلك أن تكون له حارسًا من جوانبه الأربعة ، وأن تنفى عنه الشّيطان من زوايا بيته[٥] قال أبو ذرّ

---

(١) البحر المحيط ٢ / ٢٧٦ (٢) البحر المحيط ٢ / ٢٧٦ .

(٣) تفسير ابن كثير ١ / ٣٠٦ وانظر تفسير القرطبىّ ص ١٠٧٧ .

(٤) تفسير ابن كثير ١ / ٣٠٧ (٥) تفسير القرطبىّ ص ١٠٧٧ .

فى حديثه الطّويل : سألت رسول الله ﷺ : أىّ آيةٍ أنزل الله عليك من القرآن أعظم ؟ فقال : الله لا إله إلاّ هو الحىّ القيّوم . وقال ابن عبّاس : أشرف آيةٍ فى القرآن آية الكرسىّ . قال بعض العلماء : لأنّه يكرّر فيها اسم الله تعالى بين مضمرٍ وظاهرٍ ثمان عشرة مرّة(١) .

وهذه الآية تضمنّت التّوحيد والصّفات العُلَى ، وهى خمسون كلمة ، وفى كلّ كلمةٍ خمسون بركة ، وهى تعدل ثلث القرآن ، ورد بذلك الحديث ، ذكره ابن عطيّة(٢) يقول ابن تيمية(٣) : « .... ذُكِرَ فى الحديث أنّ : قُلْ هو الله أحد تعدل ثلث القرآن(٤) لتضمّنها الثّلث الّذى هو التّوحيد ، لأنّ القرآن توحيدٌ وأمرٌ وقصص » .

الله لا إله إلاّ هو : إخبارٌ بأنّه المنفرد بالإلٰهيّة لجميع الخلائق(٥) أى لا معبود بحقٍّ فى الوجود إلاّ هو(٦) .

الحىّ : اسمٌ من أسمائه الحسنى يُسَمّى به(٧) بمعنى الدّائم البقاء(٨) وقال قتادة : الحىّ الّذى لا يموت . وقال السّدّى : المراد بالحىّ الباقى(٩) .

القيّوم : على وزن فيعول أصله قيووم اجتمعت الياء والواو وسبقت إحداهما بالسّكون فقلبت الواو ياءً وأدغمت فيها الياء(١٠) قالوا : فيعول من صيغ المبالغة(١١) والقيّوم : المبالغ فى القيام بتدبير خلقه(١٢) من قام أى القائم بتدبير ما خلق . عن قتادة . وقال الحسن : معناه القائم على كلّ نفسٍ بما كسبت حتّى يجازيها بعملها . من حيث هو عالمٌ بها لا يخفى عليه شيءٌ منها . وقال ابن عبّاس : معناه الّذى لا يحول ولا يزول(١٣) .

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ١٠٧٩ (٢) تفسير القرطبىّ ص ١٠٧٨ .

(٣) الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر ص ٩ .

(٤) رواه البخارىّ فى باب فضائل القرآن . باب فضل قل هو الله أحد . ولفظه : فقال رسول الله ﷺ : والّذى نفسى بيده إنّها لتعدل ثلث القرآن .

(٥) تفسير ابن كثير ١ / ٣٠٨ (٦) الجلالين .

(٧) تفسير القرطبىّ ص ١٠٧٩ (٨) الجلالين .

(٩) تفسير القرطبىّ ص ١٠٧٩ .

(١٠) البحر المحيط ٢ / ٢٧٧ وانظر تفسير الطّبرىّ ٣ / ٥ .

(١١) البحر المحيط ٢ / ٢٧٧ (١٢) الجلالين .

(١٣) تفسير القرطبىّ ص ١٠٧٩ وانظر البحر المحيط ٢ / ٢٧٧ ومفردات الرّاغب ص ٤١٧ .

لا تأخذه : لا تغلبه[١] .

سِنة : السِّنة : النّعاس فى قول الجميع . والنّعاس ما كان من العين فإذا صار فى القلب صار نومًا . وفرّق المفضّل بينهما فقال : السّنة فى الرّأس . والنّعاس فى العين . والنّوم فى القلب[٢] ويرى القرطبىّ أنّ السّنة فتورٌ يعترى الإنسان ولا يفقد معه عقله[٣] ويقول أبو حيّان[٤] : « السّنة والوسن ، قيل النّعاس وهو الّذى يتقدّم النّوم من الفتور . قال الشّاعر[٥] .

وسنان أقصده[٦] النّعاس فرنّقَتْ فى عينه سِنَةٌ وليس بنائم

ويبقى مع السِّنة بعض الذّهن . والنّوم هو المستثقل الّذى يزول معه الذّهن . وهذا البيت يظهر منه التّفرقة بين السّنة والنّوم » ويقول الطّبرىّ[٧] : « يعنى تعالى ذكره بقوله : لا تأخذه سنة ، لا يأخذه نعاسٌ فينعس ولا نومٌ فيستثقل نومًا . والوسن خثورة النّوم ... ومن الدّليل على ما قلنا من أنّها خثورة النّوم فى عين الإنسان قول الأعشى ميمون ابن قيس :

تعاطى الضّجيع إذا أقبلت بعيد النّعاس وقبل الوسن »

ولا نوم : عرفنا أنّ النّعاس ما كان فى العين فإذا صار فى القلب صار نومًا . والنّوم هو المستثقل الّذى يزول معه الذّهن فى حقّ البشر . والواو للعطف ولا توكيد[٨] وفائدة تكرار لا فى قوله : ولا نوم ، انتفاؤهما على كلّ حال ، إذ لو أسقطت « لا » لاحتمل انتفاؤهما بقيد الاجتماع ، تقول ما قام زيدٌ وعمرو بل أحدهما ولا يقال : ما قام زيدٌ ولا عمرو بل أحدهما[٩] « وفى الصّحيح عن أبى موسى قال : قام فينا رسول الله ﷺ

---

(١) تفسير ابن كثير ١ / ٣٠٨ (٢) تفسير القرطبىّ ص ١٠٨٠ .

(٣) تفسير القرطبىّ ص ١٠٨٠ .

(٤) البحر المحيط ٢ / ٢٧١ وانظر الكشّاف ١ / ٢٩١ .

(٥) هو عدىّ بن الرّقاع كما فى تفسير الطّبرىّ ٣ / ٥ .

(٦) أقصده أصاب منه مقتلاً حينما رماه بسهمٍ أو طعنه برمح . ويقال : رَنَّقَ النّوم فى عينيه إذا خالطهما .

(٧) تفسير الطّبرىّ ٣ / ٥ (٨) تفسير القرطبىّ ص ١٠٨٠ ، ١٠٨١ .

(٩) البحر المحيط ٢ / ٢٧٨ .

بأربع كلماتٍ فقال : إنّ الله لا ينام ولا ينبغى له أن ينام ..... » .

من ذا الّذى يشفع عنده : أى لا أحد[١] .

إلاّ بإذنه : كان المشركون يزعمون أنّ الأصنام تشفع لهم عند الله وكانوا يقولون : إنّما نعبدهم ليقرّبونا إلى الله زُلْفى[٢] ويقول القرطبىّ[٣] : « وتقرّر فى هذه الآية أنّ الله يأذن لمن يشاء فى الشّفاعة ، وهم الأنبياء والعلماء والمجاهدون والملائكة وغيرهم ممّن أكرمهم وشرّفهم الله . ثمّ لا يشفعون إلاّ لمن ارتضى كما قال : ولا يشفعون إلاّ لمن ارتضى ..... وفى البخارىّ فى : بابٌ بقيّةٌ من أبوب الرّؤية : إنّ المؤمنين يقولون : ربّنا إنّ إخواننا كانوا يصلّون معنا ويصومون معنا . وهذه شفاعةٌ فيمن يقرب أمره . وكما يشفع الطّفل المُحْبنطئ[٤] على باب الجنّة . وهذا إنّما هو فى قراباتهم ومعارفهم . وإنّ الأنبياء يشفّعون فيمن حصل فى النّار من عصاة أممهم بذنوبٍ دون قُرْبى ولا معرفة إلاّ بنفس الإيمان . ثمّ تبقى شفاعة أرحم الرّاحمين فى المستغرقين فى الخطايا والذّنوب ، الّذين لم تعمل فيهم شفاعة الأنبياء . وأمّا شفاعة محمّد ﷺ فى تعجيل الحساب فخاصّةٌ له » .

يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم : قال مجاهد : ما بين أيديهم الدّنيا . وما خلفهم الآخرة . قال ابن عطيّة : وكلّ هذا صحيحٌ فى نفسه لا بأس به ، لأنّ ما بين اليد هو كلّ ما تقدّم الإنسان ، وما خلفه هو كلّ ما يأتى بعده . وبنحو قول مجاهد قال السّدّىّ وغيره[٥] وعن ابن عبّاس : ما بين أيديهم أمر الآخرة وما خلفهم أمر الدّنيا[٦] والّذى يظهر أنّ هذا كنايةٌ عن إحاطة علمه تعالى بسائر المخلوقات من جميع الجهات . وكنى بهاتين الجهتين عن سائر جهات من أحاط علمه به[٧] .

---

(١) الجلالين .

(٢) البحر المحيط ٢ / ٢٧٨ وتفسير الطّبرىّ ٣ / ٦ .

(٣) تفسير القرطبىّ ص ١٠٨١ .

(٤) المحبنطئ : اللّازق بالأرض . وفى الحديث : إنّ السّقط يظلّ محبنطئًا على باب الجنّة . قال ابن الأثير : المحبنطئ ، بالهمز وتركه ، المتغضّب المستبطئ للشّىء . وقيل : الممتنع امتناع طلبة لا امتناع إباء .

(٥) تفسير القرطبىّ ص ١٠٨٤ وانظر تفسير الطّبرىّ ٣ / ٧ والبحر المحيط ٢ / ٢٧٩ .

(٦) البحر المحيط ٢ / ٢٧٩ (٧) البحر المحيط ٢ / ٢٧٩ .

ولا يحيطون بشيءٍ من علمه : الإحاطة تقتضى الحفوف بالشّيء من جميع جهاته والاشتمال عليه [١] والعلم هنا بمعنى المعلوم أى ولا يحيطون بشيءٍ من معلوماته[٢] .

إلاّ بما شاء : أن يعلمهم به منها بإخبار الرّسل[٣] .

وسع كرسيّه السّماوات والأرض : يقال كُرسيّ وكِرْسيّ والجمع الكراسيّ[٤] .

وسائر الرّوايات عن ابن عبّاس وغيره تدلّ على أنّ المراد به الكرسيّ المشهور مع العرش[٥] . قال ابن زيد فحدّثنى أبى قال قال رسول الله ﷺ : ما السّماوات السّبع فى الكرسيّ إلاّ كدراهم سبعة ألقيت فى ترس[٦] وروى أبو إدريس الخولانيّ عن أبى ذرّ قال : قلت يا رسول الله أىّ ما أنزل عليك أعظم ؟ قال : آية الكرسيّ، ثمّ قال ، يا أبا ذرّ ما السّماوات السّبع مع الكرسيّ إلاّ كحلقة ملقاةٍ فى أرض فلاة . وفضل العرش على الكرسيّ كفضل الفلاة على الحلقة . وقال مجاهد : ما السّماوات والأرض فى الكرسيّ إلاّ بمنزلة حلقةٍ ملقاةٍ فى أرض فلاة[٧] . عن ابن عبّاس : لو أنّ السّماوات السّبع والأرضين السّبع بسطن ثمّ وصلن بعضهنّ إلى بعض ما كنّ فى سعة الكرسيّ إلاّ بمنزلة الحلقة فى المفازة[٨] قال ابن عطيّة : والّذى تقتضيه الأحاديث أنّ الكرسيّ مخلوقٌ عظيم بين يدى العرش . والعرش أعظم منه . وقد قال رسول الله ﷺ : ما السّماوات السّبع فى الكرسيّ إلاّ كدراهم سبعة ألقيت فى ترس . وقال أبو ذرّ : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ما الكرسيّ فى العرش إلاّ كحلقةٍ من حديد ألقيت فى فلاةٍ من الأرض[٩] .

وبشأن الكرسيّ من الوجهة اللّغويّة يقول أبو حيّان[١٠] : « الكرسيّ آلةٌ من الخشب

---

(١) البحر المحيط ٢ / ٢٧٩ .

(٢) تفسير القرطبيّ ص ١٠٨٤ وانظر البحر المحيط ٢ / ٢٧٩ .

(٣) الجلالين .

(٤) تفسير القرطبيّ ص ١٠٨٤ وانظر تفسير الطّبرىّ ٣ / ٧ و ٨ .

(٥) تفسير القرطبيّ ص ١٠٨٥ وانظر تفسير الطّبرىّ ٣ / ٨ .

(٦) تفسير الطّبرىّ ٣ / ٨ والتُّرس صَفْحةٌ من الفولاذ تُحْمل للوقاية من السّيف ونحوه .

(٧) تفسير القرطبيّ ص ١٠٨٦ وانظر تفسير ابن كثير ١ / ٣٠٩ .

(٨) تفسير ابن كثير ١ / ٣٠٩

(٩) البحر المحيط ٢ / ٢٨٠ .

(١٠) البحر المحيط ٢ / ٢٧٢ .

وغيره معلومة يقعد عليها . والياء فيه كالياء فى قمرى ليست للنّسب وجمعه كراسى » .

ولا يئوده حفظهما : يئوده معناه يُثْقِلهُ . يقال : آدنى الشّىء بمعنى أثقلنى وتحمّلت منه المشقّة . وبهذا فسّر اللّفظة ابن عبّاس والحسن وقتادة وغيرهم[١] ويقول الزّمخشرىّ[٢] : « ولا يئوده : ولا يُثْقِلُه ولا يشقّ عليه » قال الشّاعر :

ألا ما لسلمى اليوم بتّ جديدها وضنّت وما كان النّوال يئودها[٣]

العظيم : صفة بمعنى عظيم القدر والخطر والشّرف[٤] .

المناسبة .

تحدّثت الآية الكريمة قبل السّابقة عن الاختلاف والاقتتال بين أتباع النّبيّين من بعد ما جاءتهم البيّنات ، وحينما تنصّ آية الكرسىّ على أنّ الله سبحانه وتعالى هو وحده المعبود بحقّ وهو الّذى له وحده الخلق والأمر ، ومعروفٌ أنّ جوهر الرّسالات السّماويّة واحد ، فكأنّها تخاطب الأتباع بأنّ الأمر ما دام كذلك وأنّ لله وحده لا شريك له الخلق والأمر فلا معنى للاختلاف فضلاً عن الاقتتال وقد تبيّن من آياتٍ كريمة أُخَر أنّ المؤمنين الّذى اهتدوا زادهم الله تعالى هدىً إلى هداهم وآتاهم تقواهم وأنّ الله سبحانه وتعالى هدى الّذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحقّ بإذنه لأنّهم كانوا فى اختلافهم يبحثون عن الحقّ والحقيقة فهداهم الله تعالى إلى الصّراط المستقيم . كما تحدّثت الآية الكريمة السّابقة عن نفى الشّفاعة يوم القيامة فى حقّ الكافرين ، وقد عمّقت آية الكرسىّ هذا المعنى ، وإنّ الحديث عن الشّفاعة معناه اتّصال الحياة الأخرى بالحياة الأولى فى يقين المسلم لله ربّ العالمين ، وهذه الحياة هى الّتى عنيت بها كذلك الآية الكريمة السّابقة .

عرفنا أن آية الكرسىّ الكريمة هذه سيّدة آى القرآن الكريم كما تبيّن من الحديث الصّحيح . وإنّما كان لهذه الآية الكريمة هذه المنزلة الرّفيعة لأنّها تتعلّق بأكبر أهداف الكتاب العزيز وأهداف دين الإسلام الّذى رضيه الله تعالى لعباده ، أعنى توجيد الله تعالى . والمعروف أنّ القرآن الكريم توحيدٌ وأمرٌ وقصص ، أو توحيدٌ وأحكامٌ وقصص ، وكلّها يهدف إلى الهداية إلى الطّريقة

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ١٠٨٦ وانظر البحر المحيط ٢ / ٢٨٠ .

(٢) الكشّاف ١ / ٢٩٢ وانظر تفسير الطّبرىّ ٣ / ٨ .

(٣) البحر المحيط ٢ / ٢٧٢ (٤) تفسير القرطبىّ ص ١٠٨٧ .

الّتى هى أقوم ، وعماد هذه الهداية توحيد الله تعالى وإفراده جلّ وعلا بالعبادة . وبما أنّ حظّ بعض السّور والآيات موفورٌ فى مجال التّوحيد ، كسورة الإخلاص الّتى ثبت من الحديث الصّحيح أنّها تعدل ثلث القرآن لتضمّنها الثّلث المتعلّق بالتّوحيد ، وكآية الكرسىّ ، لذا كان لأمثال هذه السّور والآيات رفيع المنزلة وكبير المكانة . وقد تبيّن من الأحاديث الصّحيحة الكثر فضل آية الكرسىّ الكريمة ورفيع منزلتها .

وفى دراستنا المتأمّلة لهذه الآية الكريمة سوف يتبيّن بإذن الله تعالى بعض مظاهر إعجاز الآية الكريمة الّتى يطيب لنا أن نبدأ الحديث عنها فى هذا الشّأن بقول الزّمخشرىّ[1] : « فإن قلت ، كيف ترتّبت الجمل فى آية الكرسىّ من غير حرف عطف ؟ قلت : ما منها جملةٌ إلاّ وهى واردةٌ على سبيل البيان لما ترتّبت عليه . والبيان متّحدٌ بالمبيَّن . فلو توسطّ بينهما عاطف لكان كما تقول العرب : بين العصا ولحائها »[2] .

ويبدو — والله تعالى أعلم — أنّ من أحسن الطّرق وأقصرها من أجل الوصول — بإذن الله تعالى — إلى الهدف المنشود ، أن نسير مع جزئيّات الآية الكريمة الواحدة تلو الأخرى ، وربّما كان مفيدًا أن نشير ابتداءً إلى معنى الآية الكريمة بإيجاز مع التّنبيه الخاطف إلى نوع الرّباط بين الجزئيّات . تقرّر الآية الكريمة أنّه لا إله معبودًا بحقٍّ إلاّ الله الحىّ الّذى لا يموت المبالغ فى القيام بتدبير خلقه . وبقصد تعميق معنى الحياة الدّائمة يُنفى السِّنة والنّوم . وبقصد تعميق معنى القيّوميّة ، ينصّ على القاعدة الّتى تقوم عليها وهى الملكيّة ، فللّه تعالى ما فى السّماوات وما فى الأرض . ولمّا كان المعبود بحقٍّ هو الله تعالى وحده لا شريك له ، ولمن وحّد الله تعالى عظيم الثّواب ولمن أشرك عظيم العذاب ، فقد كان ثمّة التّنبيه إلى دار العمل ولا حساب وهى الأولى ، ودار الحساب والجزاء ولا عمل وهى الأخرى عن طريق الحديث عن الشّفاعة يوم القيامة وبذلك يرسخ فى يقين المسلم لله ربّ العالمين التّرابط الوثيق والالتحام التّامّ بين الحياتين فيغتنم من أولاه لآخرته . وإذا كان سير

---

(١) الكشّاف ١ / ٢٩٢ .

(٢) اللّحاء ، بكسر اللّام المشدّدة ، قشر العود أو الشّجرة . وفى المثل : لا تدخل بين العصا ولحائها .

الأمور يصحّ أن يسير وفق هذا النّسق خلق ، ملك ، حياة دائمة ، علم ، تدبير ، وكان ثمّة تجاوزٌ لعمليّة الخلق المفهومة ضمْنًا إثر تقريرا لقيّوميّة ، وتقريرٌ للملكيّة إثر إثبات الحياة الدّائمة ونفى السّنة والنّوم ، فذلك معناه أنّ العلم بحاجةٍ إلى أن ينال حقّه وقد كان : ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيءٍ من علمه إلاّ بما شاء ﴾ ولمّا كانت الآية الكريمة تدور حول محورى العلم والقدرة ، وقد نال العلم حظّه ، فبقى أن تنال القدرة حظّها ، وكان المنعطف إلى الحديث عن القدرة شركةً بين العلم والقدرة ﴿ وسع كرسيّه السّماوات والأرض ﴾ ثمّ خلص الحديث عن القدرة : ﴿ ولا يئوده حفظهما ﴾ وكانت الجزئيّة الأخيرة فى الآية الكريمة مُعمّقة لتلك القدرة الّتى لا تقوم إلاّ على علم ﴿ وهو العلىّ العظيم ﴾ وإذا كنّا نفهم من لفظ العلىّ صفة العلوّ والارتفاع ، فإنّ لفظ العظيم قوّةٌ لهذا العلوّ وذلك الارتفاع معمّقٌ لمعانى التّقدير والخلق والتّدبير والقيّوميّة المطلقة .

وإنّ هذه النّظرة الأولى السّريعة بحاجةٍ إلى أن تتلوها نظرة أخرى بطيئة ، وكما بيّنّا من ذى قبل ستسير الدّراسة المتأمّلة للآية الكريمة وفق جزئيّاتها الواحدة تلو الأخرى . فمع أولى جزئيّات الآية الكريمة وبالله التّوفيق .

ونستطيع أن نتبيّن ابتداءً أنّ آية الكرسىّ الكريمة تقرّر توحيد الله تعالى ووجوب إفراده جلّ وعلا بالعبادة وطاعة الله تعالى وطاعة رسوله الكريم صلوات الله وسلامه عليه استعدادًا ليوم القيامة يوم الحساب والجزاء ، يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلاّ من أتى بقلبٍ سليم . والآية الكريمة فى سبيل تحقيق هدفها المنشود تركّز على وسيلتين اثنتين ومتعلّقاتهما أو على صفتين من صفات الله تعالى الواحد الأحد الفرد الصّمد الّذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد . وهاتان الصّفتان هما صفتا الحياة والقيّوميّة . ومن متعلّقات الحياة نفى السّنة والنّوم وإثبات العلم . ومن متعلّقات القيّوميّة ملك السّماوات والأرض وحفظهما وهو جلّ وعلا العلىّ العظيم .

والآن مع الجزئيّة الكريمة الأولى . قال تعالى : ﴿ الله لا إله إلاّ هو الحىّ القيّوم ﴾ والجزئيّة الكريمة تقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى لا إله معبودًا بحقّ سواه جلّ وعلا فهو

المستحقّ لأن يفرد بالعبادة وحده لا شريك له ، لأنّه جلّ وعلا له وحده الخلق والأمر ، ولأنّ كلّ ما فى هذا الوجود من أصغر ذرّةٍ إلى أكبر جِرْم ، دليلٌ على هذا الإله الواحد :

وفى كلّ شىءٍ له آيةٌ تدلّ على أنّه واحد

ويستوى أن ننظر إلى ذرّات هذا الوجود وأجرامه من حيث الظّاهر أو من حيث الباطن . إنّ كلّ نظرةٍ وكلّ تدبّر وكلّ استنتاج وكلّ حقيقة يؤدّى إلى نتيجةٍ حتميّةٍ هى وحدة الخالق جلّ وعلا وقد قال عزّ من قائل[١] : ﴿ تبارك الّذى بيده المُلك وهو على كلّ شىءٍ قدير . الّذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيُّكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور . الّذى خلق سبع سماواتٍ طباقًا ما ترى فى خلق الرّحمن من تفاوتٍ فارجع البصر هل ترى من فطور . ثمّ ارجع البصر كرّتين ينقلب إليك البصر خاسئًا وهو حسير ﴾ . وقال تعالى[٢] : ﴿ تبارك الّذى نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا . الّذى له ملك السّماوات والأرض ولم يتّخذ ولدًا ولم يكن له شريكٌ فى الملك وخلق كلّ شىءٍ فقدّره تقديرا ﴾ وقال تعالى[٣] : ﴿ وإلهكم إلٰهٌ واحدٌ لا إله إلاّ هو الرّحمن الرّحيم ﴾ وقال تعالى[٤] : ﴿ لو كان فيهما آلهةٌ إلاّ اللهُ لفسدتا فسبحان اللهِ ربّ العرش عمّا يَصِفون . لا يُسْأَلُ عمّا يَفْعَلُ وهم يُسْأَلون ﴾ .

وتصف الجزئيّة الكريمة هذا الإله الواحد بصفتين « الحىّ القيّوم » والحىّ هو الدائم البقاء الّذى لا يموت وقد قال تعالى[٥] : ﴿ وتوكّل على الحىّ الّذى لا يموت وسبّحْ بحمده وكفى بِهِ بذنوب عباده خبيرا ﴾ والقيّوم ، صيغة مبالغة تفيد البالغ القيام بتدبير خلقه . وصفة الحياة تتجاوز الحياة والحياة الباقية الدّائمة إلى إحياء من أراد له الحىّ جلّ وعلا الحياة . وصفة القيّوميّة تتجاوز مرحلة الخلق والإيجاد من العدم ، والملاحظ على الآية الكريمة بعامّةٍ أنّها تُعْنى بالقيّوميّة بأكثر من الخالقيّة ، لأنّ القيّوميّة تَعْنى وجود صفة الخالقيّة ضمنًا .

---

(١) سورة الملك ١ ــ ٤

(٢) سورة الفرقان ، ١ ، ٢ .

(٣) سورة البقرة ١٦٣

(٤) سورة الأنبياء ٢٢ ، ٢٣ .

(٥) سورة الفرقان ٥٨ .

وإذ كانت الصّفة « الحيّ » تعنى الحياة ، وتعنى الحياة الخالدة ، وتعنى إحياء من أراد الله تعالى إحياءه وما أراد الله تعالى إحياءه ، فإنّ هذه الصّفة الّتى يصحّ أن تخلع على من أحياهم الله تعالى وأوجدهم من العدم تقذف إلى الذّهن بالضّرورة فى حقّ المخلوقات ببعض الملابسات كالرّاحة بعد التّعب وكالغفلة بعد الانتباه ، وكالنّعاس والنّوم بعد اليقظة ، إلى غير ذلك من ملابسات . وقد قال عزّ من قائل[١] : ﴿ وجعلنا نومكم سُباتًا . وجعلنا اللّيل لباسًا . وجعلنا النّهار معاشًا ﴾ وقال تعالى[٢] ﴿ الله الذى جعل لكم اللّيل لتسكنوا فيه والنّهار مبصرًا . إنّ الله لذو فضلٍ على النّاس ولكنّ أكثر النّاس لا يشكرون ﴾ وقال تعالى[٣] : ﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم اللّيل سَرْمَدًا إلى يوم القيامة مَنْ إلٰهٌ غَيْرُ الله يأتيكم بضياءٍ أفلا تسمعون . قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النّهار سرمدًا إلى يوم القيامة من إلٰهٌ غير الله يأتيكم بليلٍ تسكنون فيه أفلا تُبْصرون . ومن رحمته جعل لكم اللّيل والنّهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلّكم تشكرون ﴾ إلى غير ذلك من آياتٍ كريمات . وإنّ الإنسان الّذى أوجده خالقه من العدم ونفخ فيه من روحه وكرّمه وفضّله على كثيرٍ ممّن خلق تفضيلاً ، لحياته نهاية تتمثّل فى الموت ، وبين هذا الموت أو هذه الوفاة موتٌ أصغر أو وفاةٌ صغرى تتمثّل فى النّوم وقد قال عزّ من قائل[٤] : ﴿ الله يتوفّى الأنفس حين موتها والّتى لم تمت فى منامها فيمسك الّتى قضى عليها الموت ويُرْسل الأخرى إلى أجلٍ مسمّى . إنّ فى ذلك لآياتٍ لقومٍ يتفكّرون ﴾ وهذا الإنسان الّذى تجوز عليه الوفاة الكبرى ، وبين يديها الوفاة الصّغرى ، يأخذه النّعاس والوسن ، وقد تستبدّ به الغفلة إلى غير ذلك من الملابسات الّتى تتعلّق بالحياة والّتى تسعى إلى محاولة النّيل منها .

وإنّ آية الكرسىّ الكريمة ، فى سبيل إثبات الحياة الأبديّة للذّات العليّة ، تنفى فى الجزئيّة الكريمة التّالية عن الذّات العليّة أبسط متعلّقات الحياة فى حقّ الخلائق ، وذلك فى اللّغة الّتى يفهمها البشر وفى حدود القدرة الّتى تطيقها اللّغة العاجزة بطبعها . وإنّ فى نفى أبسط

---

(١) سورة النّبأ ٩ — ١١ (٢) سورة غافر ٦١ .

(٣) سورة القصص ٧١ — ٧٣ (٤) سورة الزّمر ٤٢ .

متعلّقات الحياة إثباتًا لتمام الحياة السّرمديّة وكمال البقاء الأبدىّ . قال تعالى : ﴿ لا تأخذه سنةٌ ولا نوم ﴾ وقد عرفنا أنّ السِّنة بمعنى النّعاس الّذى يأخذ العين ويستحوذ عليها ويبقى معه من الذّهن مُسْكَة ومن العقل بقيّة ، وفى نفى السّنة نفى لهيّن الأشياء وطردٌ لأقل الشّواغل والمؤثّرات ، كما عرفنا أنّ النّوم هو الّذى يأخذ العين والذّهن معًا ، العين والقلب جميعًا ، وفى نفى النّوم نفى لجليل الأشياء وطردٌ لأكبر الشّواغل والمؤثّرات .

إنّ فى حقّنا — نحن البشر — للسّنة وللنّوم شأنًا وأىّ شأن ، لأنّه ينشأ فى حقّنا بسبب النّعاس والوسن كبير الغفلة وبسبب النّوم كامل الغفلة ، وإنّ فى نفى الجزئيّة الكريمة عن الذّات العليّة كلاًّ من السّنة والنّوم تقريبًا للمعانى نحن البشر فى اللّغة الّتى نفهم وهى العاجزة بطبعها رغم كونها أكثر الوسائل قدرةً على التّعبير عن المعانى وتصوير الأحوال والمواقف . وإنّ المراد ببساطةٍ من نفى السّنة والنّوم عن الذّات العليّة إثبات الحياة الأبديّة الكاملة وتقرير العلم المطلق ، وهما من مقوّمات القيّوميّة الّتى تُعْنى بها آية الكرسىّ عنايةً بالغة . ويلاحظ أنّ القول : ﴿ لا تأخذه سنةٌ ولا نوم ﴾ يعود إلى صفة « الحىّ » المتقدّمة على صفة « القيّوم » أما وقد أخذت صفة « الحىّ » حظها ، فلتأخذ صفة « القيّوم » حظّها هى الأخرى فقد جاء دورها ، وقد كان ذلك فى القول : ﴿ له ما فى السّماوات وما فى الأرض ﴾ والمعنى لله ما فى السّماوات وما فى الأرض ملكًا وخلقًا وعبيدا .

ويلاحظ أنّ الجزئيّة الكريمة تستعمل اسم الموصول « ما » العائد على غير العاقل ، تغليبًا لما لا يعقل بسبب الكثرة بالقياس لما يعقل . وحينما يكون لله تعالى ما فى السّماوات وما فى الأرض فذلك معناه أنّ السّماواتِ والأرض داخلةٌ هى الأخرى فى هذه الملكيّة . فلِلّه تعالى السّماوات والأرض وما فيهن ومن فيهنّ ملكًا وخلقًا وعبيدا .

ومن البيّن علاقة القول : ﴿ له ما فى السّماوات وما فى الأرض ﴾ وهو الّذى يفيد الملكيّة ، بالقيّوميّة . إنّ هذه الملكيّة قاعدةٌ صلدةٌ تقوم عليها القيّوميّة المطلقة .

وبما أنّ الإنسان الّذى خلقه ربّه فى أحسن تقويم وكرّمه وفضّله على كثيرٍ ممّن خلق تفضيلاً ، يأتى على رأس قائمة المخلوقات فوق الكرة الأرضيّة ومن أجل هذا الإنسان أرسل الله تعالى رسله وأنزل كتبه ، وعلى رأس هؤلاء المرسلين أشرفهم وخاتمهم محمّد بن

عبد الله ﷺ ، وعلى رأس تلك الكتب السّماوية القرآن الكريم الّذى انفرد بكونه قد جمع من بين سائر الكتب السّماويّة بين المنهج والمعجزة معًا ، والّذى انفرد بكونه محفوظًا بحفظ الله تعالى ، والّذى أنزله الله تعالى مصدّقًا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنًا عليه ، لكلّ ذلك نال هذا الإنسان فى الآية الكريمة حظّه من زاوية مسئوليّته أمام الله تعالى عن كلّ صغيرة وكبيرة يأتى بها وهو الّذى خلقه الله تعالى كى يعبده جلّ وعلا وحده لا شريك له . قال تعالى[١] : ﴿ وما خلقت الجنّ والإنس إلاّ ليعبدون ﴾ وكان حديث الآية الكريمة عن هذا الإنسان معمّقًا لما تضمّنته الآية الكريمة السّابقة من نفى الشّفاعة فى حقّ الكافر يوم القيامة . جاء فى الآية الكريمة القول : ﴿ من ذا الّذى يشفع عنده إلاّ بإذنه ﴾ والمعنى لا أحد يشفع عنده يوم القيامة إلاّ بإذنه جلّ وعلا ورضاه . وحينما نتبيّن أنّ للمصطفى ﷺ شفاعتين عامّةً وخاصّة ، وأنّ للأنبياء شفاعة ، وأنّ للعلماء والمجاهدين والملائكة وغيرهم ممّن أكرمهم الله تعالى وشرّفهم شفاعة ، نستطيع أن نفهم أنّ الشّفاعة فى المذنبين ، وبهذا يقوّى الحديث عن الشّفاعة هنا الحديث عن نفى الشّفاعة فى حقّ الكافرين ، فقد قيل إنّ حديث آية الكرسىّ عن الشّفاعة ردٌّ على زعم المشركين أنّ الأصنام تشفع لهم عند الله تعالى وكانوا يقولون : إنّما نعبدهم ليقرّبونا إلى الله زُلْفى[٢] قال عزّ من قائل[٣] : ﴿ ألا لله الدّين الخالص . والّذين اتّخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلاّ ليقرّبونا إلى الله زُلْفى . إنّ الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون . إنّ الله لا يهدى من هو كاذبٌ كفّار ﴾ .

وإنّ نفى الجزئيّة الكريمة الشّفاعة لأحدٍ إلاّ بإذنه جلّ وعلا : ﴿ من ذا الّذى يشفع عنده إلاّ بإذنه ﴾ يتمّم معناه ويكمل أبعاده مواضع أخرى فى الذّكر الحكيم منها قولُه تعالى[٤] : ﴿ يومئذٍ لا تنفع الشّفاعةُ إلاّ من أَذِنَ له الرّحمن ورضى له قولاً ﴾ وقولُه تعالى[٥] : ﴿ وكم من مَلَكٍ فى السّماوات لا تُغْنى شفاعتهم شيئًا إلاّ من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾ وقولُه تعالى[٦] : ﴿ وقالوا اتّخذ الرّحمٰن ولدًا سبحانه .. بل عبادٌ

---

(١) سورة الذّاريات ٥٦
(٢) تفسير الطّبرىّ ٣ / ٦ .
(٣) سورة الزّمر ٣
(٤) سورة طه ١٠٩ .
(٥) سورة النّجم ٢٦
(٦) سورة الأنبياء ٢٦ — ٢٨ .

مكرمون . لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلاّ لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ﴾ .

ووراء كلّ ذلك هذه الجزئيّة الكريمة : ﴿ من ذا الّذى يشفع عنده إلاّ بإذنه ﴾ الّتى تشى بقدرة الذّات العليّة المطلقة وتتمشّى مع قوله عزّ من قائل[1] : ﴿ لِمَنِ المُلْكُ اليوم ؟ لله الواحد القهّار ﴾ هذه الجزئيّة الكريمة امتدادٌ للقيّوميّة ، فلِلّه سبحانه وتعالى الملك فى الأولى والآخرة وله الحمد جلّ وعلا .

لقد نالت صفة الحياة « الحىّ » حظّها فى القول : ﴿ لا تأخذه سنةٌ ولا نوم ﴾ ونالت صفة القيّوميّة « القيّوم » حظّها فى القول : ﴿ له ما فى السّماوات وما فى الأرض . من ذا الّذى يشفع عنده إلاّ بإذنه ﴾ ويبدو أنّ حظّ القيّوميّة حتّى الآن هو الأكبر ، وهنا نتبيّن العودة إلى أحد متعلّقات الحياة وهو العلم ، كى تنال كلٌّ من الصّفتين حظّها كاملاً غير منقوص . وهذه هى الجزئيّة الكريمة المتعلّقة بالعلم بشقّيها . قال تعالى : ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشىءٍ من علمه إلاّ بما شاء ﴾ .

فمع الشّقّ الأوّل : ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ والمعنى أنّ الله سبحانه وتعالى يعلم ما بين أيدى الخلائق وأمامهم من شئون الدّنيا فلا يخفى عليه جلّ وعلا شىءٌ فى الأرض ولا فى السّماء ويعلم ما توسوس به نفس كلّ مخلوقٍ ومن باب أولى ما يسرّ به إلى غيره وما يقوله وما يفعله من خيرٍ أو شر ، ويعلم جلّ وعلا ما خلف الخلائق وما وراء أظهرهم من شئون الآخرة وما سوف يصادفونه فى ذلك اليوم المجموع له النّاس المشهود من حساب فجزاء ، ثوابٍ أو عقاب .

وإذا كان هذا الشّقّ الأوّل : ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ أثبت للذّات العليّة كامل العلم ، فإنّ الشّقّ الآخر : ﴿ ولا يحيطون بشىءٍ من علمه إلاّ بما شاء ﴾ ينفى عمّا سواه جلّ وعلا أىّ شىءٍ من العلم ، بما فى ذلك الآلهة المعبودة من دون الله تعالى والّتى لا تخلق شيئًا وهى مخلوقة ، والّتى لا تملك لنفسها فضلاً عن غيرها ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورا .

---

(١) سورة غافر ١٦ .

والحقيقة أنّ هذا القول : ﴿ ولا يحيطون بشيءٍ من علمه إلاّ بما شاء ﴾ نستطيع أن نقول عنه أشياء وأن نستفيد منه دروسًا هي على النّحو الآتي .

١ ــ هذا القول ذو علاقةٍ بمثل قوله تعالى[١] : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلاّ قليلا ﴾ وقوله تعالى[٢] : ﴿ وقل ربّ زدني علما ﴾ وقوله تعالى[٣] : ﴿ وفوق كلّ ذي علمٍ عليم ﴾ .

٢ ــ يقرّر هذا القول أنّ العلم من الله تعالى .

٣ ــ ينصّ القول على إحاطة المخلوقين بشيءٍ من علمه جلّ وعلا . والإحاطة تفيد التّمكّن من ذلك الجزء من العلم بفضل الله تعالى ومنّه . وهذا مظهرٌ من مظاهر نعم الله تعالى على عباده حيث إنّ الإشارة إلى العلم لم تكتف بغير أبعد نهاياته وأسمى آياته . فللّه تعالى الحمد والمنّة .

٤ ــ إنّ ما يحيط به المخلوقون من علم وما ينالونه من حظٍّ موفورٍ منه إنّما يتمّ بمشيئة الله تعالى وعلمه .

ومن البيّن أنّ حديث الآية الكريمة عن علم الله تعالى المحيط ذو علاقةٍ بالقدرة وبالقوّة وبالقيّوميّة .

أما وقد نالت كلٌّ من صفتي الحياة والقيّوميّة حظّهما الموفور ، لنتحوّل إلى الجزئيّة الكريمة التّالية بشقّيها فإنّها مبنيّةٌ على ما سبقها من معانٍ ومترتّبةٌ عليها . قال تعالى : ﴿ وسع كرسيّه السّماوات والأرض ولا يئوده حفظهما ﴾ وبشأن لفظ كرسيّ الّذي جاء في الشّقّ الأوّل : ﴿ وسع كرسيّه السّماوات والأرض ﴾ قيل عنه مرّةً بأنّه بمعنى العلم . والمعروف أنّ عناية الآية الكريمة بالعلم بالّذي هو من متعلّقات الحياة كبيرة . وقيل عنه مرّةً أخرى بأنّه بمعنى القدرة . والمعروف أنّ عناية الآية الكريمة بالقدرة الّتي هي من متعلّقات القيّوميّة كبيرة . ويصحّ قبول هذا الرّأي وذاك . وعليه يأخذ هذا الشّقّ بحظّه من كلٍّ من العلم والقدرة وفق كلٍّ من الرّأيين .

---

(١) سورة الإسراء ٨٥ .

(٢) سورة طه ١١٤ .

(٣) سورة يوسف ٧٦ .

وإذا كان الكرسيّ بمعنى العلم كان هذا الشّقّ ﴿ وسع كرسيّه السّماوات والأرض ﴾ بمثابة التّوطئة للشّقّ الآخر المتعلّق بالقدرة أو القيّوميّة : ﴿ ولا يئوده حفظهما ﴾ والمعنى ولا يُثْقِله جلّ وعلا ولا يشقّ عليه تعالى حفظ السّماوات والأرض وما فيهنّ . وبهذا يتبيّن حظّ كلٍّ من العلم والقدرة المتوازيين ، حظّ كلٍّ من الحياة والقيّوميّة المتساويين . وإنّ اتّجاه هذا الشّقّ : ﴿ ولا يئوده حفظهما ﴾ إلى القيّوميّة هيّأ الجزئيّة الكريمة الأخيرة فى الآية الكريمة أن تكون ذات علاقة بالقدرة وبالقيّوميّة : ﴿ وهو العلىّ العظيم ﴾ .

ومن البيّن أنّ ثمّة تدرّجًا إلى الأعلى . فالعلىّ هو الّذى يعلو كلّ شيءٍ سواه ، والعظيم هو الّذى يضمّ إلى علوّ المكانة ورفعة المنزلة القدرة التّامّة والقيّوميّة المطلقة : ﴿ فسبحان الّذى بيده ملكوتُ كلِّ شيءٍ وإليه تُرْجَعون ﴾[١] .

يقول ابن كثير[٢] : « وهذه الآيات وما فى معناها من الأحاديث الصّحاح الأجود فيها طريقة السّلف الصّالح أمرّوها[٣] كما جاءت من غير تكييفٍ ولا تشبيه » .

الآيــة رقــم (٢٥٦)

قال تعالى : ﴿ لا إكراه فى الدّين قد تبيّن الرّشد من الغىّ . فمن يكفر بالطّاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوُثْقى لا انفصام لها والله سميعٌ عليم ﴾ .

لا إكراه فى الدّين : أى لا تكرهوا أحدًا على الدّخول فى دين الإسلام[٤] وقد اختلف العلماء فى معنى هذه الآية الكريمة على أقوال ، فمنهم من قال إنّها منسوخة ، لأنّ النّبىّ ﷺ قد أكره العرب على دين الإسلام وقاتلهم ولم يرض منهم إلاّ بالإسلام . وقال : نسختها : يا أيّها النّبىّ جاهد الكفّار والمنافقين . وروى هذا عن ابن مسعود وكثيرٍ من المفسّرين . ومنهم من قال إنّ الآية ليست بمنسوخة ، وإنّما نزلت فى أهل الكتاب خاصّة ،

---

(١) سورة يس ٨٣ (٢) تفسير ابن كثير ١ / ٣١٠ .

(٣) أمرّوها : يقال : أمرّ فلانًا بكذا إذا جعله يمرّ .

(٤) تفسير ابن كثير ١ / ٣١٠ .

وأنّهم لا يُكْرهون على الإسلام إذا أدّوا الجزية ، والّذين يُكرَهون أهل الأوثان فلا يقبل منهم إلاّ الإسلام فهم الّذين نزل فيهم : يا أيّها النّبىّ جاهد الكفّار والمنافقين . هذا قول الشّعبىّ وقتادة والحسن والضّحّاك . والحجّة لهذا القول ما رواه زيد بن أسلم عن أبيه قال : سمعت عمر بن الخطّاب يقول لعجوزٍ نصرانيّة : اسلمى أيّتها العجوز تسلمى ، إنّ الله بعث محمّدًا بالحقّ ، قالت : أنا عجوزٌ كبيرة والموت إلىّ قريب . فقال عمر : اللّهم اشهد وتلا : لا إكراه فى الدّين[١] إلى غير ذلك من أقوال تعتمد فى جملتها على ما يقال من أنّه سبب النّزول[٢] .

قد تبيّن الرّشد من الغىّ : قد تميّز الإيمان من الكفر[٣] وظهر بالآيات البيّنات أنّ الإيمان رشد والكفر غىّ[٤] واستبان الإيمان من الكفر ، وهذا يبيّن أنّ الدّين هو معتقد الإسلام[٥] وهذه الجملة كأنّها كالعلّة لانتفاء الإكراه فى الدّين لأنّ وضوح الرّشد واستبانته تحمل على الدّخول فى الدّين طوعًا من غير إكراه[٦] والرّشد مصدر[٧] يقال : رَشَد يرشُدُ رُشْدًا . ورشِد يرشَد رَشَدًا ، إذا بلغ ما يحبّ . وغَوَى ضدُّه عن النّحّاس[٨] والغىّ مصدر من غَوَى يَغْوى إذا ضلّ فى معتقدٍ أو رأى ، ولا يقال الغىّ فى الضّلال على الإطلاق[٩] .

فمن يكفر بالطّاغوت ويؤمن بالله : الطّاغوت : الشّيطان قاله عمر ومجاهد والشّعبىّ والضّحّاك وقتادة والسّدّى ، أو ما عبد من دون الله ممّن يرضى ذلك كفرعون ونُمروذ . قاله الطّبرىّ . أو الأصنام قاله بعضهم[١٠] ومذهب سيبويه أنّه اسمٌ مذكّرٌ مفردٌ كأنّه اسم جنسٍ يقع للقليل والكثير . ومذهب أبى علىّ أنّه مصدر كَرَهبوت وجَبَروت ، وهو يوصف به الواحد والجمع ، وقلبت لامه إلى موضع العين وعينه موضع اللّام كجبذ وجذب ، فقلبت الواو ألفًا لتحرّكها وتحرّك ما قبلها فقيل طاغوت . واختار

---

(١) انظر تفسير القرطبىّ ص ١٠٨٨ .
(٢) انظر تفسير القرطبىّ ص ١٠٨٨ و ١٠٨٩ .
(٣) الكشّاف ١ / ٢٩٣
(٤) الجلالين .
(٥) البحر المحيط ٢ / ٢٨٢
(٦) البحر المحيط ٢ / ٢٨٢ .
(٧) تفسير الطّبرىّ ٣ / ١٢
(٨) تفسير القرطبىّ ص ١٠٨٧ .
(٩) تفسير القرطبىّ ص ١٠٨٧ وانظر تفسير الطّبرىّ ٣ / ١٣ .
(١٠) البحر المحيط ٢ / ٢٨٢ وانظر تفسير الطّبرىّ ٢ / ١٣ وانظر تفسير ابن كثير ١ / ٣١١ وانظر مفردات الرّاغب ص ٣٠٥ .

هذا القول النّحّاس[١] ويقول القرطبىّ[٢] : « والطّاغوت مؤنّثة من طغى يطغى — وحكى الطّبرىّ[٣] يطغو — إذا جاوز الحدّ بزيادةٍ عليه ووزنه فعلوت » ويقول الطبرىّ[٤] : « وأرى أنّ أصل الطّاغوت الطّغووت من قول القائل : طغا فلانٌ يطغو إذا عدا قدره فتجاوز حدّه كالجبروت من التّجبّر والحلبوت من الحلب ونحو ذلك من الأسماء الّتى تأتى على تقدير فعلوت بزيادة الواو والتّاء . ثمّ نقلت لامه أعنى لام الطّغووت فجعلت له عينًا وحوّلت عينه فجعلت مكان لامه كما قيل : جذب وجبذ وجابذ وجاذب وصاعقة وصاقعة وما أشبه ذلك من الأسماء الّتى على هذا المثال » قال الجوهرىّ : والطّاغوت الكاهن والشّيطان وكلّ رأسٍ فى الضّلال وقد يكون واحدًا . قال الله تعالى : يريدون أن يتحاكموا إلى الطّاغوت وقد أمروا أن يكفروا به . وقد يكون جمعًا . قال الله تعالى : أولياؤهم الطّاغوت ، والجمع الطّواغيت[٥] ويقول أبو حيّان[٦] : « الطّاغوت بناء مبالغةٍ من طغى يطغى » .

فقد استمسك : فقد تمسّك[٧] .

بالعُرْوة الوثقى : العروة : موضع الإمساك وشدّ الأيدى والتّعلّق[٨] والعروة : ما يتعلّق به من عُراه أى ناحيته[٩] والعروة شجرةٌ تبقى على الجذب لأنّ الإبل تتعلّق بها فى الخصب من عَرْوَتُه ألممت به متعلّقًا واعتراه التمّ[١٠] تعلّق به[١١] جعل ما تمسّك به من الإيمان عروة وهى فى الأجرام موضع الإمساك وشدّ الأيدى . شبّه الإيمان بذلك[١٢] ويقول الطّبرىّ[١٣] : « والعروة فى هذا المكان مثلٌ للإيمان الّذى اعتصم به المؤمن فشبّهه

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ١٠٨٩ والبحر المحيط ٢ / ٢٧٢ .
(٢) تفسير القرطبىّ ص ١٠٨٩
(٣) تفسير الطّبرىّ ٣ / ١٣ .
(٤) تفسير الطّبرىّ ٣ / ١٣
(٥) تفسير القرطبى ص ١٠٩٠ .
(٦) البحر المحيط ٢ / ٢٧٢
(٧) تفسير الطّبرىّ ٣ / ١٣ والجلالين .
(٨) البحر المحيط ٢ / ٢٧٢
(٩) مفردات الرّاغب الأصفهانىّ ص ٣٣٢ .
(١٠) التّمّ بكسر التّاء : الفأس . وبكسر التّاء وفتحها وضمّها : التّمام .
(١١) البحر المحيط ٢ / ٢٧٢
(١٢) البحر المحيط ٢ / ٢٨٢ .
(١٣) تفسير الطّبرىّ ٣ / ١٤ .

فى تعلّقه به وتمسّكه به بالمتمسّك بعروة الشّىء الّذى له عروة يتمسّك بها إذ كان كلّ ذى عروة فإنّما يتعلّق من أراده بعروته » .

الوثقى : والوثقى فُعْلَى من الوثاقة . يقال فى الذّكر هو الأوثق ، وفى الأنثى هى الوثقى كما يقال : فلانٌ الأفضل وفلانة الفُضْلى[١] وهذه الآية تشبيه ، واختلفت عبارة المفسّرين فى الشّىء المشبّه به فقال مجاهد : العروة الإيمان . وقال السُّدّى : الإسلام . وقال ابن عبّاس وسعيد بن جبير والضّحّاك : لا إله إلاّ الله . وهذه عباراتٌ ترجع إلى معنًى واحد[٢] وعن أنس بن مالك العروة الوثقى القرآن[٣] قاله السّدّى أيضًا أو السُّنّة[٤] .

لا انفصام لها : الانفصام : الانكسار من غير بينونة . والقصم : كسرٌ ببينونة . وفى صحيح الحديث : فيُفْصِم عنه الوحى وإنّ جبينه ليتفصّد عَرَقًا . أى يُقْلع . قال الجوهرىّ : فصم الشّىء كسره من غير أن يبين تقول : فصمته فانفصم[٥] والانفصام الانقطاع وقيل الانكسار من غير بينونة وقد يجىء الفصم بالفاء فى معنى البينونة[٦] يقول ابن كثير[٧] : « أى فقد استمسك من الدّين بأقوى سبب ، وشبّه ذلك بالعروة القويّة الّتى لا تنفصم ، هى فى نفسها محكمة مبرمة قويّة ، وربطها قوىّ شديد » ويقول الزّمخشرىّ[٨] : « فقد استمسك بالعروة الوثقى ، من الحبل الوثيق المحكم المأمون انفصامها أى انقطاعها » ويقول أبو حيّان[٩] : « لا انفصام لها لا انكسار لها ولا انقطاع . قال الفرّاء : الانفصام والانقصام هما لغتان وبالفاء أفصح . وفرّق بعضهم بينهما فقال : الفصم انكسار بغير بينونة . والقصم الكسر ببينونة » .

والله سميعٌ عليم : لمّا كان الكفر بالطّاغوت والإيمان بالله ممّا ينطق به اللّسان ويعتقده القلب حسن فى الصّفات سميعٌ من أجل النّطق ، عليمٌ من أجل المعتقد[١٠] والله سميعٌ لما

---

(١) تفسير الطّبرىّ ٣ / ١٤ وتفسير القرطبىّ ص ١٠٩٠ .
(٢) تفسير القرطبى ص ١٠٩٠ وانظر تفسير ابن كثير ١ / ٣١١ والبحر المحيط ٢ / ٢٨٢ .
(٣) تفسير ابن كثير ١ / ٣١١
(٤) البحر المحيط ٢ / ٢٨٢ .
(٥) تفسير القرطبىّ ص ١٠٩٠
(٦) البحر المحيط ٢ / ٢٧٢ .
(٧) تفسير ابن كثير ١ / ٣١١
(٨) الكشّاف ١ / ٢٩٣ .
(٩) البحر المحيط ٢ / ٢٨٣ .
(١٠) تفسير القرطبىّ ص ١٠٩٠ وانظر البحر المحيط ٢ / ٢٨٣ .

يقال ، عليمٌ بما يفعل[١] .

كانت عناية آية الكرسيّ السّابقة بالتّوحيد كبيرة ولهذا كانت سيّدة آى القرآن الكريم ، وهذه الآية الكريمة التّالية تقرّر أنّه لا إكراه فى الدّين ولا إرغام لأحدٍ على أن يعتنق بالقوّة الدّين الإسلاميّ ، وإن كان قد تبيّن الرّشد من الغيّ ، وإن كان قد تبيّن لكلّ ذى عين مبصرة وبصيرةٍ نيّرة أنّ الإيمان رشد وهدىً وأنّ الكفر غيٌّ وضلال ، وإن كان دين الإسلام هو الّذى أكمله الله تعالى لنا وأتمّ به النّعمة علينا ورضيه لنا ، وإن كان دين الإسلام هو الدّين عند الله وهو الدّين الّذى لن يقبل الله تعالى من عبدٍ ابتغى غيره . وإنّما لم يكن ثمّة إكراهٌ فى الدّين ، دين الإسلام الّذى تلك صفاته ، لأنّ الدّين اعتقادٌ متعلّقٌ بالقلب ، وليس لمخلوقٍ سلطة على قلب مخلوق ، وقد قال عزّ من قائل[٢] : ﴿ فمن يُرِدِ الله أن يَهْديه يَشْرَح صدره للإسلام ومن يُرِدْ أن يُضِلّه يجعل صدره ضيّقًا حَرَجًا كأنّما يصّعّد فى السّماء . كذلك يجعل الله الرّجس على الّذين لا يؤمنون ﴾ وسئل النّبىّ ﷺ عن هذه الآية من سورة الأنعام ، قالوا : كيف يشرح صدره يا رسول الله ؟ قال : نورٌ يقذف فيه فينشرح له وينفسح . قالوا : فهل لذلك من أمارة يعرف بها ؟ قال : الإنابة إلى دار الخلود والتّجافى عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل لقاء الموت[٣] .

وحينما يأتى بعد آية الكرسيّ ، أعظم آى القرآن الكريم بسبب عنايتها الفائقة بقضيّة التّوحيد ، حينما يأتى الحديث عن دين الإسلام وبأنّه لا إكراه على الدّخول فى دين الإسلام ، فذلك دليلٌ على كون الدّين عند الله تعالى هو دين الإسلام ، دين التّوحيد الخالص ، إذ المعروف أنّ دين الإسلام هو الدّين الّذى شاءت إرادته جلّ وعلا أن يقضى على الوثنيّة قضاءً مبرمًا ، وها هو ذا المصطفى ﷺ يخاطب النّاس فى حجّة الوداع فى خطبته المشهورة بعرفات قائلاً[٤] : ﴿ أمّا بعد أيّها النّاس ، فإنّ الشّيطان قد يئس من أن يُعْبَدَ بأرضكم هذه أبدًا ، ولكنّه إن يُطَعْ فيما سوى ذلك فقد رضى ممّا تحقرون من أعمالكم ، فاحذروه على دينكم ﴾ .

---

(١) الجلالين

(٢) سورة الأنعام ١٢٥ .

(٣) تفسير ابن كثير ٢ / ١٧٤

(٤) السّيرة النّبويّة ٤ / ٢٧٥ .

وبعد الشّهادة من العليّ الكبير بأنّ الدّين عنده جلّ وعلا هو الإسلام ومع ذلك فلا إكراه فيه لأنّه لا سلطة لمخلوق على قلب مخلوق ، يأتى النّصّ على أنّ من تمسّك بدين الإسلام ، وقِوام ذلك من ناحية الكفر بالطّاغوت ،.وهو الشّيطان وكلّ ما عُبِد ومَنْ عُبِد من دون الله تعالى ورضى بذلك ، ومن ناحيةٍ أخرى الإيمان بالله تعالى وإفراده جلّ وعلا وحده لا شريك له ، يأتى النّصّ على أنّ من تمسّك بدين الإسلام فقد تمسّك بالعروة الوثقى الّتى لا انفصام لها ، وهو الانكسار دون بينونة ، فضلاً عن انقصامها وهو كسرها ببينونة . إنّ الفصم ممتنع فكيف بالقصم .

إنّ شهادة الحقّ جلّ وعلا بأنّ الدّين عند الله الإسلام بسبب نقاء العقيدة وصفائها تأتى بطريقٍ غير مباشرٍ وذلك للنّهى عن الإكراه فى دخول دين الاسلام الّتى تلك صفاته الفريدة الخاصّة به ، وإنّ النّصّ على أنّ من اعتنق دين الإسلام فقد استمسك بالعروة الوثقى الّتى لا انفصام لها يأتى هو الآخر كسابقه بطريقٍ غير مباشرٍ وذلك بتبيين أهمّ مقوّمات الاستمساك بتلك العروة الّتى تلك صفاتها بأن يكون ثمّة كفرٌ بالطاغوت على النّحو الّذى تبيّن وإيمانٌ بالله . وإنّما كان الحديث هنا بطريقٍ غير مباشر ، وإنّما كان ثمّة تجاوزٌ للحديث المباشر والاكتفاء بتقرير الصّفات وإثبات النّتائج لأنّ الحقّ تلك طبيعته ، فباعتباره حقيقةً هو يعرف بصفاته ويدرك كنهه بالوقوف على ثماره ونتائجه .

والحقيقة أنّ ثمّة سؤالاً يفرض نفسه بناءً على معرفة صفات هذا الدّين وكونه هو الحقّ الّذى يُدْعى إليه وينبغى اعتناقه وهذا السّؤال هو : وكيف تُعْرف صفات هذا الدّين الحقّ وكيف يتمّ قطف ثماره باعتناقه والدّعوة إليه ؟ يتمّ كلّ ذلك عن طريق أمين الله تعالى فى الأرض على وحيه محمّد بن عبد الله ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين ورحمة الله تعالى المهداة ونعمته المسداة إلى العالمين .

والحقيقة أنّ هذا القول : ﴿ فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ﴾ بحاجةٍ منّا إلى أن نقف عنده مليّا . وأوّل ما يصادفنا « قد » الّتى تفيد التّحقيق . وإذا كان استمسك بمعنى تمسّك ، فالحقيقة أنّا وراء ذلك نتبيّن فى زيادة مبنى استمسك زيادةً فى معناها على

غرار الاستعصام وما إلى ذلك . وقد قال الزّمخشريّ[١] بشأن ما جرى على لسان امرأة العزيز[٢] : ﴿ ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ﴾ : « الاستعصام بناء مبالغة يدلّ على الامتناع البليغ والتّحفّظ الشّديد كأنّه فى عصمةٍ وهو يجتهد فى الاستزادة منها ، ونحوه : استمسك واستوسع الفتق واستجمع الرّأى واستفحل الخطب » .

وليس بخافٍ أنّ الاستمساك هنا بشيءٍ معنويّ هو شهادة ألاّ إله إلاّ الله أو الإسلام أو الإيمان ، ومن أجل تقريب المعنى يستعار له شيءٌ محسوس يشبّه به ، وبذلك يظهر المعنويّ فى شكل المحسوس ويقرب البعيد . وهذا الشّيء المحسوس المستعار يصحّ أن يكون حبلاً يتعلّق به المتعلّق . والعادة جرت أنّ اللّجوء إلى مثل هذه الوسيلة الحسّيّة إنّما يكون بقصد الفرار من خطرٍ محدق والنّجاة من هلاك شبه محقّق . وتختار الآية الكريمة من وسيلة الإنقاذ أمكن جوانبها وآمن أجزائها ألا وهى العروة ، موضع الإمساك وشدّ الأيدى والتّعلّق . إنّ مجرّد التّعلّق بأىّ حبلٍ يتدلّى وافٍ بالغرض وبأىّ جانبٍ منه محقّقٌ للفائدة ، والآية الكريمة لا تقنع من وسيلة الإنقاذ الحسّيّة إلاّ بآمن أجزائها وأمكن مواضعها فربّما انساب الحبل ، لولا العروة ، من بين يدى الممسك به ، ربّما أخطأه المتعلّق أو انفلت منه . وإنّ احتمال حدوث شيءٍ من ذلك مع وجود العروة والاستمساك بها أمرٌ مستبعد . إنّ الاستمساك من ناحية شديد وإنّ موضع الاستمساك من ناحيةٍ أخرى آمن .

ولا تكتفى الآية الكريمة بالقبضة الشّديدة من المستمسك ، ولا بالعروة وهى آمن موضع وأمكن جانب ، إنّما تضيف إلى هذه العروة من الصّفات ما يستفاد منه قدرة وسيلة النّجاة الفائقة وقوّتها الخارقة على إيصال المتعلّق بها — بإذن الله تعالى — إلى برّ السّلامة وشاطئ الأمان ، وما يستفاد منه كذلك أنّ المستمسك بالعروة ليس وحده فى الميدان بل تكلؤه رعاية الرّحمن وترعاه عناية المنّان تمشّيًا مع قوله عزّ من قائل[٣] : ﴿ والّذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا وإنّ الله لمع المحسنين ﴾ وكلّ ذلك مستفاد من

---

(١) الكشّاف ٢ / ١٣٥ (٢) سورة يوسف ٣٢ .

(٣) سورة العنكبوت ٦٩ .

وصف العروة بأنّها وثقى وبأنّها لا انفصام لها ، وقد عرفنا بأنّ الوُثْقى فُعْلى من الوثاقة بمعنى القوّة والمتانة والإحكام . وهذه الصّفة خاصّة بالعروة ذاتها ، فهى عروة محكمة العقد . وبما أنّ العروة فى حدّ ذاتها تحتاج إلى مقوّمين اثنين كى تحقّق الغرض منها وهما إحكام عقد العُرْوة ومتانة المادّة المصنوعة منها ، ولمّا كانت صفة الوثقى متعلّقةً بذات العروة ، فبقى إذن ما يتعلّق بالمقوّم الآخر ، المادّة المصنوعة منها ، وكان ذلك فى القول : « لا انفصام لها » بمعنى أنّ انكسار هذه العروة دون بينونة ممتنع فكيف بانكسارها ببينونة . إنّ هذه المرحلة التّالية وهى القصم أشدّ امتناعًا من المرحلة الأولى وهى الفصم . وفى امتناع العروة على الحلّ دليلٌ على إحكام عقدها ، وفى امتناع مادّة العروة على الانكسار أو الانقطاع دليلٌ على متانة وسيلة الإنقاذ فى هيئة الحبل أو ما شاكله .

أما وقد تبيّنت الخصائص الفريدة لكلٍّ من العروة ومن وسيلة الإنقاذ ، فقد بقى علينا أن نقدّم الدّليل على أنّ الآية الكريمة ذات علاقةٍ بمثل قوله تعالى فى سورة العنكبوت : ﴿ والّذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا وإنّ الله مع المحسنين ﴾ وبمثل قوله تعالى[1] : ﴿ والّذين اهتدوا زادهم هدًى وآتاهم تقواهم ﴾ وفى سبيل تقديم هذا الدّليل نحن نودّ أن نتمثّل شخصًا سقط — لا سمح الله تعالى — فيما يشبه الهاوية ورغبنا فى أن نتمثّل وسيلة الإنقاذ شبه الأكيدة بإذن الله تعالى . إنّ أقرب ما يتبادر إلى الذّهن هو أن يبادر المسعفون والمنقذون إلى تدلية حبلٍ أو ما أشبهه . وكى تقوم هذه الوسيلة بدورها خير قيام وهى الّتى يفترض فيها متانتها يلجأ المسعفون إلى عمل تلك العروة أو العقدة كى يتمكّن ذلك الشّخص من الاستمساك بتلك العروة وإحكام القبض بكلتا يديه عليها . إنّ وجود العروة يعنى وجود الطّرف الآخر الّذى عملها والّذى سيقوم بدوره بشدّ الشّخص بقصد إنقاذه لأنّه لو لم يكن ثمّة الطّرف الآخر الّذى سيقوم بعمليّة الشدّ فلا معنى لوجود العروة ولأنّه ليس ثمّة الطّرف الآخر الّذى يعملها ، وفى حال عدم وجود العروة ذلك معناه لجوء الشّخص فى الهاوية إلى محاولة إنقاذ نفسه بأىّ وسيلةٍ من الوسائل معتمدًا بعد الله تعالى على ذاته فليس ثمّة الأطراف الآخرون الّذين يدلون بوسيلتهم إليه فضلاً عن عملهم العروة

---

(١) سورة محمد ١٧ .

أو شدّه بقصد إنقاذه .

ومن البيّن أنّا تعاملنا مع تلك العروة الّتى تلك صفاتها من زاويتنا نحن البشر فى اللّغة الّتى نفهم وقد نزّلت الآية الكريمة شهادة ألاّ إله إلاّ الله أو الإيمان أو الإسلام ، وهى أمورٌ معنويّة ، منزلة الأمر الحسّىّ ، بقصد تقريب المعنى لنا نحن البشر القاصرى الإدراك القصيرى النّظر فى اللّغة الّتى نفهم .

وتختم الآية الكريمة بتقرير هاتين الصّفتين فى حقّ الذّات العليّة : ﴿ والله سميعٌ عليم ﴾ إنّ ثمّة إسلامًا يكتفى معه بالظّاهر من إعلانٍ للشّهادتين وتصديق ببقيّة الأركان ، ولذلك علاقةٌ من نوعٍ مّا باللّسان ، وإنّ وسيلة إدراك ما يقال السّماع . وقد نبّهت الصّفة « سميع » على ذلك . فالله سبحانه وتعالى سميعٌ لكلّ ما يقال . وإنّ وراء الإسلام إيمانًا يتطلّب وراء إعلان اللّسان تصديقًا بالجنان وعملاً بالأركان ، ولذلك علاقةٌ بالعلم . وقد نبّهت الصّفة « عليم » على ذلك . فالله سبحانه وتعالى عليمٌ بالنّوايا وبالأعمال . وقبل ذلك عليمٌ بالأقوال وبالأسرار وبوساوس النّفس وخفايا الضّمير ، فلا يخفى عليه جلّ وعلا شيءٌ فى الأرض ولا فى السّماء ، ولا يخفى عليه جلّ وعلا من أسرّ القول ومن جهر به ومن هو مستخفٍ باللّيل وساربٌ بالنّهار ، ولا يخفى عليه جلّ وعلا صادق الإيمان من كاذبه ، فليتّق الله عبادُ الله تعالى وليقولوا قولاً سديدا .

ولعلّ خير ما يفسّر معنى الآية الكريمة هذا الحديث الّذى رواه الإمام أحمد والّذى أخرجاه فى الصّحيحين . « قال الإمام أحمد : أنبأنا إسحاق بن يوسف حدّثنا ابن عون عن محمّد بن قيس بن عبادة قال : كنت فى المسجد فجاء رجلٌ فى وجهه أثرٌ من خشوع فصلّى ركعتين أوجز فيهما فقال القوم : هذا رجلٌ من أهل الجنّة . فلمّا خرج اتّبعته حتّى دخل منزله فدخلت معه فحدّثته فلمّا استأنس قلت له : إنّ القوم لمّا دخلت المسجد قالوا كذا وكذا قال : سبحان الله ، ما ينبغى لأحدٍ أن يقول ما لا يعلم وسأحدّثك لِمْ : إنّى رأيت رؤيا على عهد رسول الله ﷺ فقصصتها عليه ، رأيت كأنّى فى روضةٍ خضراء — قال ابن عون فذكر من خضرتها وسعتها — وفى وسطها عمود حديد أسفله فى الأرض وأعلاه فى السّماء ، فى أعلاه عروة فقيل لى اصعد عليه ، فقلت : لا أستطيع . فجاءنى

مِنْصَف[١] ــ قال ابن عون هو الوصيف ــ فرفع ثيابى من خلفى فقال اصعد فصعدت حتّى أخذت بالعروة فقال استمسك بالعروة ، فاستيقظت وإنّها لفى يدى ، فأتيت رسول الله ﷺ فقصصتها عليه فقال : أمّا الرّوضة فروضة الإسلام ، وأمّا العمود فعمود الإسلام ، وأمّا العروة فهى العروة الوثقى ، أنت على الإسلام حتّى تموت . قال وهو عبد الله بن سلام . أخرجاه فى الصّحيحين من حديث عبد الله بن عون فقمت إليه . وأخرجه البخارىّ من وجهٍ آخر عن محمّد بن سيرين به »[٢] .

والحقيقة أنّ هذا القول الخفيف على اللّسان الثّقيل فى الميزان : « لا إكراه فى الدّين قد تبيّن الرّشد من الغىّ » بحاجةٍ منّا إلى أن نقف عنده مليّا .

لا إكراه فى الدّين .

يرتبط بهذا القول : « لا إكراه فى الدّين قد تبيّن الرّشد من الغىّ » الكثير من الملابسات الّتى هى بحاجةٍ إلى توضيحٍ وشىءٍ من بسط القول . ونعتقد أنّ من أنسب الوسائل إلى ذلك أن نستعرض تلك الملابسات بقصد أخذ الدّروس منها واستخلاص الفوائد والعبر .

من المعروف أنّ المصطفى ﷺ بعد أن أرسله جلّ وعلا بدين الإسلام الّذى أكمله ورضيه لنا وأتمّ به النّعمة علينا قد مكث فى مكّة قبل الهجرة ثلاث عشرة سنة يدعو إلى سبيل ربّه بالحكمة والموعظة الحسنة ، وقد صادف عليه الصّلاة والسّلام كما صادف المؤمنون المستضعفون فى الأرض آنذاك الكثير من المشقّة والعنت . وإنّما صادف المؤمنون ما صادفوا من مشقّةٍ وعنت رغم أنّ الحقّ معهم بسبب قلّة المؤمنين وضعف حيلتهم وعدم وجود الدّولة الإسلاميّة القادرة على حماية الحقّ بالقوّة وترجمة تعاليم الإسلام إلى عمل . ولم يؤذن للمؤمنين بالقتال للأسباب السّابقة ، وحتّى حينما آنسوا ، فى فترةٍ متأخّرةٍ من المرحلة المكّيّة ، فى أنفسهم شيئًا من قوّة ، واستأذنوا المصطفى ﷺ فى قتال المشركين لم يأذن عليه الصّلاة والسّلام لهم لأنّ الله سبحانه وتعالى لم يأذن بذلك ، وقد كان الرّدّ عليهم كما جاء فى سورة النّساء[٣] : ﴿ كفُّوا أيديكم وأقيموا الصّلاة وآتوا الزّكاة ﴾ والمعروف

---

(١) المِنْصَف بكسر الميم وفتح الصّاد والمَنْصَف بفتح الميم والصّاد : الخادم .

(٢) تفسير ابن كثير ١ / ٣١١ (٣) الآية ٧٧ .

أنّ حصيلة الدّعوة فى هذه المرحلة المكّيّة زهاء ثلاثمائة شخصٍ صادفوا فى مكّة صنوف العذاب وهاجروا فى أثناء هذه الفترة المكّيّة أو هاجر بعضهم على وجه الدّقّة إلى الحبشة مرّتين اثنتين حتّى أذن الله تعالى للمؤمنين فى الهجرة إلى المدينة المنوّرة ، وقد توّجت عمليّة الهجرة بهجرة المصطفى ﷺ بإذنٍ من ربّه إلى المدينة المنوّرة ، وكلُّنا على ذُكْرٍ بالمشقّة الّتى كابدها عليه الصّلاة والسّلام فى الفترة المكّيّة الّتى امتدّت ثلاث عشرة سنة ، والّتى كابدها عليه الصّلاة والسّلام فى أثناء الاستعداد للهجرة وفى الهجرة ذاتها . وهل قنع المشركون بهجرة المصطفى ﷺ والمؤمنين من بلدهم مكّة المكرّمة واكتفوا بما فعلوا بالمؤمنين وما ألحقوا بهم من بلاءٍ وأذىً قبل الهجرة ؟ لا لم يكتفوا بل كانوا حريصين على اقتلاع الإسلام من جذوره مهما كانت التّربة الّتى وجدها صالحةً له وإن كانت بيئة يثرب الّتى تبعد عن مكّة أربعمائة كيلو متر ، والدّليل على هذه النيّة السّيّئة ضدّ الإسلام وأهله معارك الإسلام فى فجره مع المكيّين وأحلافهم فى بدرٍ وأحدٍ والخندق حتّى كان فتح مكّة فى رمضان من سنة ثمانٍ من الهجرة .

ممّا سبق يتبيّن أنّ الحقّ وحده لا يكفى بدليل أنّ مشركى مكّة لم يزدادوا فى حربهم للحقّ إلاّ عتوًّا واستكبارًا ومكر السّيّئ ، كما يتبيّن أنّ هذا الحقّ ينبغى أن تصحبه القوّة الّتى تحميه وتذود عن حياضه وتناضل خصومه وتترجم تعاليمه إلى عمل ومبادئه إلى واقع . وهذا الدّرس البليغ نستفيده من المرحلة المدنيّة الّتى استمرّت عشر سنوات لحق بعدها المصطفى ﷺ بالرّفيق الأعلى . فما هو دور القوّة فى هذه المرحلة ، تلك القوّة الّتى جعلت الحقّ أكثر نطقًا وفصاحةً وبيانًا ، وأنصع حجّة ، وأقدر على الكرّ والفرّ وغزو الوهاد والنّجاد وقطع الصّحارى وعبور المياه ؟

حينما وصل المصطفى ﷺ إلى المدينة المنّورة مهاجرًا شاءت العناية الإلٰهيّة أن يختصّ المصطفى ﷺ بين سائر الأنبياء والمرسلين أن ترتبط دولته عليه الصّلاة والسّلام بدعوته ، وها هو ذا المصطفى ﷺ يقيم دولته فى المدينة المنّورة بمجرد وصوله إليها . وقد كانت حدود هذه الدّولة يوم وصل النّبىّ ﷺ إلى المدينة هى حدود العاصمة المدينة المنوّرة أو يثرب . ونودّ أن نقفز إلى نهاية هذه الفترة المدنيّة وبعد مضىّ عشر سنوات على

هجرته عليه الصّلاة والسّلام إلى المدينة المنّورة . فما هى حدود هذه الدّولة الإسلاميّة الفتيّة ؟ وما هى نسبة عدد الدّاخلين فى دين الإسلام الّذى رضيه الله تعالى فى هذه السّنوات العشر بالقياس إلى السّنوات الثّلاثَ عشرة المكّيّة ؟ إنّه لا مجال للمقارنة بحالٍ من الأحوال بين النّتيجتين أو الحصيلتين . فى مكّة المكرّمة قبل الهجرة لا دولة إسلاميّة أساسًا ، وفى المدينة المنوّرة حينما لحق المصطفى ﷺ بالرّفيق الأعلى كانت حدود هذه الدّولة الإسلاميّة تزيد على المليون ميل مربّع ! وليس المهمّ هو الانسياح العسكرىّ وحده ، إنّما المهمّ بل الأهمّ ، هو تحوّل سكّان هذه الدّولة الإسلاميّة الفتيّة من الإشراك مع الله تعالى غيره إلى عقيدة التّوحيد الصّافية النّقيّة . ألم يجىء فى سورةٍ مدنيّة نزلت كاملة ، سورة النّصر ، قوله عزّ من قائل : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح . ورأيت النّاس يدخلون فى دين الله أفواجًا . فسبّح بحمد ربّك واستغفره إنّه كان توّابا ﴾ ؟

وما الّذى امتازت به الفترة المدنيّة بفضلٍ من الله تعالى وعون على الفترة المكّيّة ؟ امتازت باقتران القوّة بالحقّ وسيرهما معًا فى خطّين متوازيين ، وإن شئت قلت إنّهما الوجهان النّاصعا البياض المشرقان لعملةٍ واحدة هى عملة التّوحيد الصّافى النّقىّ . ومن ألطف ما ينبغى التّنبيه عليه والإشادة به قيادة المصطفى ﷺ بطل الأبطال لأكبر جيشٍ عرفته الجزيرة العربيّة إلى تبوك مؤذنًا بطريقةٍ عمليّة وجوب تأديب أعداء الإسلام خارج الجزيرة العربيّة ممثّلين فى دولة الرّوم الّتى تتربّص بالإسلام والمسلمين الدّوائر والّتى سوّلت لها نفسها غزو دولة الإسلام الفتيّة فى عقر دارها والّتى أعدّت العدّة وتأهّبت لذلك .

إنّ تعاون الحقّ والقوّة وتلاحمهما بحاجةٍ منّا إلى استعراض أهمّ معالمهما حتّى لحق المصطفى ﷺ بالرّفيق الأعلى قبل أن يغادر جيش أسامة المدينة المنوّرة ذلك الجيش الّذى عقد لواءه المصطفى ﷺ بطل الأبطال بيده الشّريفة ، إنّ هذا الاستعراض أمرٌ غايةٌ فى الأهمّيّة من أجل معرفة معنى قوله تعالى : ﴿ لا إكراه فى الدّين ﴾ .

عرفنا أنّ ربّ العزّة لم يأذن قبل الهجرة للمصطفى ﷺ وللمؤمنين بالقتال . وبعد الهجرة ، وفى السّنة الثانية أذن الله سبحانه وتعالى للنّبىّ ﷺ وللمؤمنين بالدّفاع عن

أنفسهم فى حال الاعتداء عليهم . جاء فى سورة الحجّ[١] قوله عزّ من قائل : ﴿ أُذِنَ لِلّذين يقاتَلون بأنّهم ظلموا . وإنّ الله على نصرهم لقدير . الّذين أُخْرِجوا من ديارهم بغير حقٍّ إلاّ أن يقولوا ربُّنا الله . ولولا دَفْعُ اللهِ النّاسَ بعضَهُمْ ببعضٍ لهُدّمت صوامِعُ وبِيَعٌ وصلواتٌ ومساجِدُ يُذْكَرُ فيها اسمُ الله كثيرا ، ولَيَنْصُرَنّ الله من يَنْصُرُه . إنّ الله لقويٌّ عزيز . الّذين إن مكّنّاهم فى الأرض أقاموا الصّلاة وآتوا الزّكاة وأمروا بالمعروف ونَهَوْا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور ﴾ ثمّ أذن الله تعالى للمؤمنين بأن يقاتلوا فى سبيله جلّ وعلا الّذين يقاتلونهم . قال عزّ من قائل[٢] : ﴿ وقاتلوا فى سبيل الله الّذين يقاتلونكم ولا تعتدوا . إنّ الله لا يحبّ المعتدين ﴾ ثمّ كان الأمر بقتال المشركين كافّة . قال تعالى[٣] : ﴿ وقاتلوا المشركين كافّةً كما يقاتلونكم كافّةً واعلموا أنّ الله مع المتّقين ﴾ وقال تعالى[٤] : ﴿ قاتلوا الّذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرّمون ما حرّم الله ورسولُه ولا يدينون دِينَ الحقّ من الّذين أوتوا الكتابَ حتّى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عن يدٍ وهم صاغرون ﴾ .

والمعروف أنّ ثمّة خطواتٍ ثلاثًا يسير وفقها الدّعاة إلى الله تعالى المجاهدون فى سبيله جلّ وعلا . أن يدعو الآخرين إلى الإسلام ، و بذلك يكونون إخوةً للمسلمين ، لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم . فإن رفضوا الدّخول فى الإسلام وأصرّوا على دينهم ، طُلِبَ منهم دفع الجزية ، وهى مبلغٌ زهيدٌ من المال يؤخذ من أهل الذّمّة مقابل حماية المسلمين لهم ومقابل أخذ الزّكاة من المسلمين . فإن أصرّ القوم على دينهم وعلى عدم دفع الجزية أمهلوا ثلاثة أيّام ودعوا فى أثنائها إلى الإسلام وأعلموا أنّ المسلمين مقاتلوهم بعد انقضاء الثّلاثة الأيّام وباذلوا أرواحهم والغالى والرّخيص فى سبيل الله تعالى وفى سبيل هذا الدّين الّذى رضيه الله تعالى لعباده .

ونودّ أن نشير إلى أمرين اثنين .

الأمر الأوّل هو أنّ المصطفى ﷺ لم يقبل من مشركى الجزيرة العربيّة إلاّ الإسلام

---

(١) الآيات ٣٩ — ٤١ (٢) سورة البقرة ١٩٠ .

(٣) سورة التّوبة ٣٦ (٤) سورة التّوبة ٢٩ .

أو القتال ، لأنّ الجزيرة العربيّة مهد الإسلام ولأنّ عرب الجزيرة العربيّة مادّة الإسلام الأولى فينبغى أن يكون المهد خالصًا للإسلام ورجال هذا المهد حماة هذا الدّين فينبغى أن يكونوا مسلمين لله ربّ العالمين . فى ضوء هذه الحقيقة نستطيع أن نفهم قول مجاهد بشأن آية معاملة الأسرى فى الإسلام الآية الرّابعة من سورة محمّد ﷺ وبشأن قوله تعالى فيها : ﴿ فإذا لقيتم الّذين كفروا فَضَرْبَ الرّقاب حتّى إذا أثخنتموهم فشدّوا الوثاق فإمّا مَنًّا بَعْدُ وإمّا فداءً حتّى تضع الحربُ أوزارها ﴾ نستطيع أن نفهم قول مجاهد : ليس اليوم منٌّ ولا فداء إنّما هو الإسلام أو ضرب العنق[١] وقول ابن عبّاس رضى الله تعالى عنهما : الفداء منسوخ . نسختها فإذا انسلخ الأشهر الحرم إلى كلّ مرصد . قال : فلم يبق لأحدٍ من المشركين عهدٌ ولا حرمةٌ بعد براءة وانسلاخ الأشهر الحرم[٢] .

الأمر الثّانى هو أنّ المراحل الثّلاث ، الدّعوة إلى الإسلام كى يكونوا إخوةً للمسلمين ، أو دفع الجزية ، أو القتال ، إنّما هى فى حقّ أهل الكتاب ابتداءً . وقد جاء فى سورة التّوبة[٣] : ﴿ قاتلوا الّذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرّمون ما حرّم الله ورسولُه ولا يدينون دين الحقّ من الّذين أوتوا الكتاب حتّى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون ﴾ وقد عامل المسلمون فى جهادهم فى سبيل الله تعالى غير أهل الكتاب معاملة أهل الكتاب ، بمعنى أنّهم فى حالة الإصرار على دينهم وعلى عدم الدّخول فى دين الإسلام يأخذون منهم الجزية وإلاّ فالقتال .

أما وقد تعاون الحقّ والقوّة بعد هجرة المصطفى ﷺ إلى المدينة وكانت الثّمرة الشّهيّة لذلك التّعاون اتّحاد جزيرة العرب ، ربّما لأوّل مرّةٍ فى التّاريخ ، تحت راية المصطفى

---

(١) الكشّاف ٣ / ١٢٨ .

(٢) تفسير الطّبرىّ ٢٦ / ٢٦ وانظر هنا زاد المعاد فى هَدْى خير العباد لابن القيمّ ٢ / ٩٠ فصل : فى ترتيب سياق هديه مع الكفّار والمنافقين من حين بعث إلى حين لقى الله عزّ وجلّ . فثمّة العرض البديع والإحاطة البارعة . وانظر دراستنا للآية الكريمة الرّابعة من سورة محمّد فى كتابنا : تأمّلات فى سورة محمّد ﷺ ص ٥٩ فما بعدها .

(٣) الآية ٢٩ .

ﷺ ، راية لا إله إلاّ الله محمّد رسول الله ، وتحوّل سكّانها من الإشراك مع الله تعالى غيره إلى التّوحيد ، أما وقد تعاون كذلك الحقّ والقوّة بعد وفاة المصطفى ﷺ بحيث إنّه لم يمض قرنٌ واحدٌ من الزّمان على وفاة المصطفى ﷺ حتّى كانت دولة لا إله إلاّ الله محمّد رسول الله ممتدّةً دون انقطاع من حدود الصّين شرقًا إلى مشارف باريس غربًا ومن سيبريا شمالاً إلى المحيط جنوبًا . أما وقد آتى تعاون الحقّ والقوّة واتّحادهما أكله بإذن الله تعالى بحيث إنّ الشّعوب الّتى وصل إليها الإنقاذ الإسلامىّ قد رضيت قريرة العين أن تتخلّى عن معتقداتها وحضاراتها وثقافاتها ولغاتها وأن تعتنق الدّين الإسلامىّ وتحتضن اللّغة العربيّة وتسهم إيجابيًّا فى بناء صرح الحضارة الإسلاميّة الشّامخ المجيد وهى ذات الشّعوب الّتى رفضت بإباءٍ وشمم زهاء ألف عامٍ قبل الإسلام أن تذوب فى الفاتحين من يونان وفرسٍ ورومان ، أما وقد كان امتداد الزّحف الإسلامىّ مع عمق الأثر سريعًا بل خاطفًا للدّرجة الّتى ليس لها نظير فى تاريخ البشريّة قبل ولا بعد ، فإنّ كلّ هذه الأمور مجتمعةً تفيد أنّ معنى قوله تعالى : ﴿ لا إكراه فى الدّين ، قد تبيّن الرّشد من الغىّ ﴾ أن يتعاون كلٌّ من الحقّ والقوّة معًا فى سبيل إيصال دين الإسلام حيث وصل اللّيل والنّهار ، ليس من أجل إكراه أىّ مخلوقٍ على اعتناق هذا الدّين فقد قال تعالى : ﴿ لا إكراه فى الدّين ﴾ إنّما من أجل ألاّ تقف أىّ قوّةٍ فى الأرض فى طريق دعوة الحقّ هذه ، ومن أجل ضمان الحرّيّة الكاملة لعباد الله تعالى كى يختاروا الدّين الّذى يرتضون دون أن تكون ثمّة أىّ وسيلةٍ لأعداء الله تعالى يضعونها فى طريق هذا الدّين من وسائل التّضليل أو التّرغيب أو التّرهيب . إنّ معنى « لا إكراه فى الدّين » ببساطة أن يصل هذا الدّين حيث وصل اللّيل والنّهار ، وأن تقرع كلمة الحقّ كلّ أذن ، وأن تدمغ قوّة الحقّ أىّ قوّةٍ ضالّةٍ مضلّة تعترض دعوة الحقّ هذه . إنّ المسلمين حينما يكونون كما كان السّلف الصّالح فى إخلاصهم لدعـوة الحقّ وفى استعدادهم لبذل أرواحهم رخيصةً فى سبيل هذا الدّين الّذى رضيه الله تعالى لعباده فضلاً عن أىّ شىءٍ وراء ذلك من رخيصٍ وغال ، فإنّ عباد الله تعالى سيعتنقون دين الإسلام دين الفطرة . إنّ على المسلمين أن يخلصوا الدّعوة إلى هذا الدّين كما أخلص السّلف الصّالح ، وأن يعملوا جاهدين كى يكونوا القوّة فى الأرض الّتى ترهب عدوّ الله تعالى

وعدوّهم وقد قال عزّ من قائل[١] : ﴿ وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوّةٍ ومن رباط الخيل ترهبون به عدوّ الله وعدوّكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم . وما تنفقوا من شيءٍ فى سبيل الله يُوَفَّ إليكم وأنتم لا تظلمون ﴾ .

إنّ هذه القوّة ليست من أجل الاعتداء على أحد ، وليست من أجل إكراه أحدٍ على الدّخول فى دين الإسلام مع أنّه الدّين الحقّ النّاسخ لسائر الأديان ، إنّما القوّة من أجل حماية الدّعوة إلى الله تعالى والدّعاة إلى الله تعالى كى يمارسوا حقّهم فى الدّعوة إلى الله وكى يقوموا بواجبهم تجاه الأمانة الّتى حمّلهم الله تعالى إيّاها والّتى ائتمنوا عليها . فإن اعترضت الدّعاة إلى الله تعالى أىّ قوة وجب على قوّة الحقّ أن تدمغها وتقهرها كى تكون كلمة الله تعالى هى العليا ، وكلمة الّذين كفروا هى السّفلى .

وهكذا يتبيّن أنّ « لا إكراه فى الدّين » معناه بذل كلّ رخيصٍ وغالٍ فى سبيل هذا الدّين الّذى رضيه الله تعالى إلى أن يتحقّق وعده جلّ وعلا ووعده الحقّ فى مثل قوله عزّ من قائل[٢] : ﴿ هو الّذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحقّ ليظهره على الدّين كلّه ولو كره المشركون ﴾ وقوله عزّ من قائل[٣] : ﴿ هو الّذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحقّ ليظهره على الدّين كلّه وكفى بالله شهيدا ﴾ .

نسأل الله تعالى أن يلهم المسلمين رشدهم من أجل العمل لنشر هذا الدّين فى الخافقين وقد قال تعالى[٤] : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾ وقال تعالى[٥] : ﴿ إنّ الدّين عند الله الإسلام ﴾ وقال تعالى[٦] : ﴿ ومن يبتغ غَيْرَ الإسلام دينًا فلن يُقْبَلَ منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾ .

---

(١) سورة الأنفال ٦٠ .
(٢) سورة التّوبة ٣٣ والصّفّ ٩ .
(٣) سورة الفتح ٢٨ .
(٤) سورة المائدة ٣ .
(٥) سورة آل عمران ١٩ .
(٦) سورة آل عمران ٨٥ .

الآيــة رقــم (٢٥٧)

قال تعالى : ﴿ الله ولىّ الّذين آمنوا يخرجهم من الظّلمات إلى النّور والّذين كفروا أولياؤهم الطّاغوت يخرجونهم من النّور إلى الظّلمات . أولئك أصحاب النّار هم فيها خالدون ﴾ .

الله ولىّ الذين آمنوا : الولىّ النّاصر والمعين ، أو المحبّ أو متولّى أمورهم[١] يعنى تعالى ذكره بقوله : الله ولىّ الّذين آمنوا نصيرهم وظهيرهم يتولاّهم بعونه وتوفيقه[٢] وفعيل هنا بمعنى فاعل[٣] .

يخرجهم : الإخراج هنا إن كان حقيقةً فيكون مختصًّا بمن كان كافرًا ثمّ آمن . وإن كان مجازًا فهو مجازٌ عن منع الله إيّاهم من دخولهم فى الظّلمات[٤] .

من الظّلمات : الظّلمات : الضّلالة[٥] والكفر[٦] وإنّما جعل الظّلمات للكفر مثلاً لأنّ الظّلمات حاجبةٌ للأبصار عن إدراك الأشياء وإثباتها وكذلك الكفر حاجبٌ أبصارَ القلوب عن إدراك حقائق الإيمان والعلم بصحّته وصحّة أسبابه ، فأخبر تعالى ذكره عباده أنّه ولىّ المؤمنين ومبصّرهم حقيقةَ الإيمان وسبله وشرائعه وحججه وهاديهم فموفّقهم لأدلّته المزيلة عنهم الشّكوك بكشفه عنهم دواعى الكفر وظلم سواتر أبصار القلوب[٧] .

إلى النّور : النّور : الهدى[٨] والإيمان[٩] عن قتادة : قوله : الله ولىّ الّذين آمنوا يخرجهم من الظّلمات إلى النّور يقول : من الضّلالة إلى الهدى[١٠] قيل : وجمعت الظّلمات

---

(١) البحر المحيط ٢ / ٢٨٣ (٢) تفسير الطّبرىّ ٣ / ١٤ .
(٣) تفسير القرطبىّ ١٠٩١ (٤) البحر المحيط ٢ / ٢٨٣ .
(٥) تفسير القرطبىّ ص ١٠٩١ .
(٦) تفسير الطّبرىّ ٣ / ١٥ والجلالين والبحر المحيط ٢ / ٢٨٣ وتفسير ابن كثير ١ / ٣١٢ .
(٧) تفسير الطّبرىّ ٣ / ١٥ (٨) تفسير القرطبىّ ص ١٠٩١ .
(٩) تفسير الطّبرىّ ٣ / ١٥ والجلالين والبحر المحيط ٢ / ٢٨٣ .
(١٠) تفسير الطّبرىّ ٣ / ١٥ .

لاختلاف الضّلالات ووحّد النّور لأنّ الإيمان واحد[١] ويقول ابن كثير[٢] : « وحّد تعالى لفظ النّور وجمع الظّلمات لأنّ الحقّ واحدٌ والكفر أجناسٌ كثيرةٌ وكلّها باطلة كما قال : وأنّ هذا صراطى مستقيمًا فاتّبعوه ولا تتّبعوا السُّبل فتفرّق بكم عن سبيله ، ذلكم وصّاكم به لعلّكم تتّقون » قال الواقدىّ : كلّ شيءٍ فى القرآن من الظّلمات والنّور فإنّه أراد به الكفر والإيمان غير الّتى فى الأنعام وهو : وجعل الظّلمات والنّور فإنّه أراد به اللّيل والنّهار[٣] .

والّذين كفروا : يعنى والجاحدين وحدانيّته[٤] .

أولياؤهم : نصراؤهم وظهراؤهم الّذين يتولّونهم[٥] .

الطّاغوت : الأنداد والأوثان الّذين يعبدونهم من دون الله[٦] والشّياطين[٧] والطّاغوت اسم جنس[٨] .

يخرجونهم من النّور : يخرجونهم من نور البيّنات الّتى تظهر لهم إلى ظلمات الشّكّ والشّبهة[٩] .

الآية الكريمة السّابقة الّتى قرّرت أنّه لا إكراه فى الدّين قد قرّرت ثمرة الكفر بالطّاغوت والإيمان بالله ، وهو الاستمساك بالعروة الوثقى الّتى لا انفصام لها ، عروة دين الإسلام الّذى رضيه الله تعالى لعباده . وهذه الآية الكريمة التّالية تبيّن ما يترتّب على الإيمان من ولايةٍ لله تعالى للّذين آمنوا ونصرٍ لهم وتأييد ، ويعتبر ذلك قوّةً لما فهمنا من لفظة عروة من هدايةٍ للمؤمنين وتأييد ، عونٍ لهم وتسديدٍ من الله تعالى . كما تبيّن الآية الكريمة ما يترتّب على الإيمان بالطّاغوت من خذلانٍ باقٍ وخسران دائم . ولا يخفى ما بين الآيتين الكريمتين من علاقةٍ متينة .

والآية الكريمة تبدأ بالحديث عن المؤمنين : ﴿ الله ولىّ الّذين آمنوا يخرجهم من

---

(١) البحر المحيط ٢ / ٢٨٣
(٢) تفسير ابن كثير ١ / ٣١٢ .
(٣) البحر المحيط ٢ / ٢٨٣
(٤) تفسير الطّبرىّ ٣ / ١٥ .
(٥) تفسير الطّبرىّ ٣ / ١٥
(٦) تفسير الطّبرىّ ٣ / ١٥ .
(٧) الكشّاف ١ / ٢٩٣
(٨) البحر المحيط ٢ / ٢٨٣ .
(٩) الكشّاف ١ / ٢٩٣ .

الظّلمات إلى النّور ﴾ وأوّل ما يلفت النّظر بالمقارنة بين حظّ المؤمنين فى الآية الكريمة وحظّ الكافرين فى القول : ﴿ والّذين كفروا أولياؤهم الطّاغوت يخرجونهم من النّور إلى الظّلمات ﴾ هو أنّ الجزئيّة الكريمة المتعلّقة بالمؤمنين تبدأ بلفظ الجلالة : « الله » دليلاً على رضا الله سبحانه وتعالى عن هؤلاء المؤمنين ، بينما تبدأ الجزئيّة الكريمة المتعلّقة بالكافرين بتقرير أسوأ صفات القوم : ﴿ والّذين كفروا ﴾ دليلاً على لعنة الله تعالى لهم وطردهم من رحمته جلّ وعلا وغضبه عليهم .

وتقرّر الجزئيّة الكريمة المتعلّقة بالمؤمنين أنّ الله سبحانه وتعالى ولىّ الّذين آمنوا ، ناصرهم وكالؤهم بعين رعايته ومسدّد خطاهم . وتكلّل تلك العناية بهم والرّعاية لهم بإخراجهم من الظّلمات إلى النّور . والجزئيّة الكريمة تستعمل الفعل المضارع الدّالّ على الاستمرار : ﴿ يخرجهم من الظّلمات إلى النّور ﴾ ومن البيّن أنّنا بشأن الظّلمات أمام صيغة الجمع ، لأنّ ظلمات الضّلالة والشّرك لا حصر لها ، وأنّنا بشأن النّور أمام صيغة المفرد ، لأنّ نور الحقّ واحد ، هو الّذى بعث الله تعالى به محمّد بن عبد الله ﷺ خاتم النبيّين وأشرف المرسلين والّذى جعل معجزته آخر الكتب السّماويّة والمهيمن عليها . وقد قال عزّ من قائل فى سورة النّساء[1] : ﴿ يا أيّها النّاس قد جاءكم برهانٌ من ربّكم وأنزلنا إليكم نورًا مبينا ﴾ وقال عزّ من قائل فى سورة المائدة[2] : ﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولُنا يبيّن لكم كثيرًا ممّا كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير ، قد جاءكم من الله نورٌ وكتابٌ مبين . يهدى به الله من اتّبع رضوانه سُبُلَ السّلام ويخرجهم من الظّلمات إلى النّور بإذنه ويهديهم إلى صراطٍ مستقيم ﴾ .

وبشأن الظّلمات الّتى يستمرّ إخراج الله تعالى المؤمنين منها نستطيع أن نفهم أنّها ظلمات الشّرك والكفر ابتداءً ، فيخرجهم الله تعالى إلى نور التّوحيد والإيمان . ويتبع ذلك الإخراج إخراجٌ من سائر الظّلمات ، من ظلمة الشّك إلى نور اليقين وبرده ، ومن ظلمة الضّلال والحيرة إلى نور الاهتداء وراحة الطّمأنينة ، ومن ظلمة السّبل المتفرّقة عن سبيله جلّ وعلا إلى نور صراطه المستقيم . ويتوّج كلّ ذلك الفضل من الله تعالى بزيادة الّذين

---

(١) الآية ١٧٤ (٢) الآية ١٥ ، ١٦ .

آمنوا هدًى إلى هداهم وإيتائهم تقواهم وقد قال تعالى[١] : ﴿ والّذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا وإنّ الله لمع المحسنين ﴾ وقال تعالى[٢] : ﴿ والّذين اهْتَدَوْا زادهم هدًى وآتاهم تقواهم ﴾ .

وإذا كان هذا هو حظّ الّذين آمنوا فى الحياة الدّنيا ، الحياة الطّيّبة ، فإنّ هذا هو حظّهم فى الحياة الأخرى وإن كانت الآية الكريمة قد سكتت عن ذلك اكتفاءً بالنّصّ على حظّ الّذين كفروا فى الحياة الأخرى وقياسًا عليه وذلك فى القول عن الكافرين : ﴿ أولئك أصحاب النّار هم فيها خالدون ﴾ إنّ لسان حال الآية الكريمة كأنّه يقول فى حقّ المؤمنين : ﴿ أولئك أصحاب الجنّة هم فيها خالدون ﴾ .

وفى مقابل حياة الّذين آمنوا الطّيّبة فى الأولى والآخرة يجىء عن الّذين كفروا القول : ﴿ والّذين كفروا أولياؤهم الطّاغوت يخرجونهم من النّور إلى الظّلمات ، أولئك أصحاب النّار هم فيها خالدون ﴾ .

وقد فهمنا من ابتداء الجزئيّة بذكر أهم صفات هذا الفريق السّيّئة ألا وهى صفة الكفر وإنكار وحدانيّة الله تعالى وارتكاب الذّنب الّذى لا يغفره الله تعالى وهو الإشراك معه فى العبادة سواه ، فهمنا من ابتداء الجزئيّة الكريمة بالقول : ﴿ والّذين كفروا ﴾ لعنة الله تعالى أولئك الكافرين وطردهم من رحمته وإبعادهم من مغفرته وغضبه عليهم .

وفى مقابل ولاية الله تعالى الّذين آمنوا يكون أولياء الّذين كفروا الطّاغوت ، شياطين الإنس والجنّ ، والأصنام الّتى يعبدونها من دون الله تعالى ، ورؤساء الكفر الّذين زيّنوا لهم عبادة غير الله تعالى . إنّ للّذين كفروا الكثيرَ من الأولياء ابتداءً بالشّيطان الرّجيم ، لذا هم فى ظلمات الكفر والشّرك ابتداءً . وهؤلاء الأولياء يخرجونهم دائمًا وأبدًا من النّور إلى الظّلمات . إنّ المنافقين مثلاً ، وهم ضربٌ من الكفّار لاشتراكهم جميعًا فى صفة الكفر باطنًا ، إذا كان قد جاء فى تصوير انتفاعهم القليل من نور الإيمان وارتكاسهم فى الكفر سريعًا وعودتهم إلى ظلماته قولُه عزّ من قائل فى هذه السّورة الكريمة[٣] : ﴿ يكاد البرق

---

(١) سورة العنكبوت ٦٩ (٢) سورة محمّد ١٧ .
(٣) الآية ٢٠ .

يخطف أبصارهم كلّما أضاء لهم مَشَوْا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ﴾ فإنّ أولياءهم قد أخرجوهم من نور الإيمان إلى ظلمات الشّرك وقد زادهم الله تعالى صممًا إلى صممهم عن سماع دعوة الحقّ سماع تدبّر وقبول ، وعمى بصيرةٍ إلى عماهم عن نور الحقّ . أما وقد ابتعد الّذين كفروا عن نور الإيمان والهدى فذلك معناه أنّهم انتهوا إلى أعماق الكفر والضّلالة ، وتلقّفتهم شياطين الجنّ والإنس ، وتحوّلوا بهم من ضلالةٍ إلى ضلالة ، ومن كفر إلى كفر ، ومن ظلمة إلى ظلمة : « ظلماتٌ بَعْضُها فوق بعض ، إذا أخرج يده لم يكد يراها ، ومن لم يَجْعَلِ الله له نورًا فما له من نور »(١) .

إنّ هؤلاء الكافرين الّذين تقلّبوا فى كلّ ظلمات الكفر والضّلالة ، والّذين تخطّفتهم شياطين الإنس والجنّ ، إن لم يتوبوا إلى الله تعالى الّذى يقبل التّوبة عن عباده ويعفو عن السّيّئات ، وإن لم يعودوا إلى حظيرة الإيمان قبل أن تتوفّاهم الملائكة ظالمى أنفسهم يصحّ فى حقّهم قولُه عزّ من قائل(٢) : ﴿ إنّ الّذين كفروا وماتوا وهم كفّارٌ فلن يقبل من أحدهم مِلْءُ الأرض ذهبًا ولو افتدى به . أولئك لهم عذابٌ أليمٌ وما لهم من ناصرين ﴾ وقوله تعالى(٣) : ﴿ إنّ الّذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله ثمّ ماتوا وهم كفّارٌ فلن يغفر الله لهم ﴾ وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : ﴿ أولئك أصحاب النّار هم فيها خالدون ﴾ .

الآيــة رقــم (٢٥٨)

قال تعالى : ﴿ ألم تر إلى الّذى حاجّ إبراهيمَ فى ربّه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربّى الّذى يحيى ويميت . قال أنا أحيى وأميت ، قال إبراهيم فإنّ الله يأتى بالشّمس من المشرق فأتِ بها من المغربِ فَبُهِت الّذى كفر . والله لا يهدى القوم الظّالمين ﴾ .

ألم تر : ألم تر يا محمّد بقلبك الّذى حاجّ إبراهيم(٤) وفى الكلام معنى التّعجب ، أى

---

(١) سورة النّور ٤٠ .
(٢) سورة آل عمران ٩١ .
(٣) سورة محمّد ٣٤ .
(٤) تفسير الطّبرى ٣ / ١٦ .

اعجبوا له[١] ولذلك أدخلت إلى فى قوله : ألم تر إلى الّذى حاجّ . وكذلك تفعل العرب إذا أرادت التّعجيب من رجلٍ فى بعض ما أنكرت من فعله قالوا : ما ترى إلى هذا ، والمعنى هل رأيت مثل هذا أو كهذا[٢] .

إلى الّذى حاجّ إبراهيم : هو النُّمروذ[٣] بن كوش بن كنعان بن سام بن نوح ملك زمانه وصاحب النّار والبعوضة[٤] هذا قول ابن عبّاس ومجاهد وقتادة والرّبيع والسُّدّى وابن إسحاق وزيد بن أسلم وغيرهم[٥] وقيل فى نسب النّمروذ غير ذلك[٦] عن الرّبيع : ذكر لنا أنّ الّذى حاجّ إبراهيم فى ربّه كان ملكًا يقال له نُمروذ وهو أوّل جبّار تجبّر فى الأرض وهو صاحب الصّرح ببابل[٧] .

ومعنى حاجّ إبراهيم فى ربّه أى عارض حجّته بمثلها أو أتى على الحجّة بما يبطلها أو أظهر المغالبة فى الحجّة ثلاثة أقوال[٨] وحاجّ بمعنى جادل[٩] .

فى ربّه : الظّاهر عودة الضّمير على إبراهيم[١٠] أى وجود ربّه[١١] .

أن آتاه الله الملك : أن آتاه الله الملك فى موضع نصب ، أى لأن آتاه الله ، أو من أجل أن آتاه الله[١٢] أى حمله بطره بنعمة الله على ذلك وهو نُمروذ[١٣] ونحوه قوله تعالى[١٤] : ﴿ وتجعلون رزقكم أنّكم تكذّبون ﴾[١٥] قال بعضهم : معنى : وتجعلون رزقكم بمعنى شكركم أنّكم تكذّبون أى تكذّبون بدل الشّكر[١٦] والظّاهر أنّ الضّمير فى

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ١٠٩١ (٢) تفسير الطّبرىّ ٣ / ١٦ .

(٣) النُّمروذ بضمّ النّون وبالذّال المعجمة .

(٤) هو الّذى أمر بإبراهيم فألقى فى النّار فنجّاه الله تعالى منها . تفسير القرطبىّ ص ١٠٩٣ ويقال إنّ الله تعالى سلّط عليه بعوضة واحدة دخلت فى منخريه فأهلكته . تفسير ابن كثير ١ / ٣١٣ .

(٥) تفسير القرطبىّ ص ١٠٩٢ .

(٦) انظر مثلاً تفسير القرطبىّ ص ١٠٩٢ وتفسير الطّبرىّ ٣ / ١٦ والبحر المحيط ٢ / ٢٨٦ .

(٧) تفسير الطّبرىّ ٣ / ١٦ وانظر تفسير ابن كثير ١ / ٣١٣ وتفسير الطّبرىّ ٣ / ١٨ .

(٨) البحر المحيط ٢ / ٢٨٦ . (٩) الجلالين . (١٠) البحر المحيط ٢ / ٢٨٧ .

(١١) تفسير ابن كثير ١ / ٣١٣ . (١٢) تفسير القرطبىّ ص ١٠٩٥ والبحر المحيط ٢ / ٢٨٧ .

(١٣) الجلالين . (١٤) سورة الواقعة ٨٢ .

(١٥) الكشّاف ١ / ٢٩٤ والبحر المحيط ٢ / ٢٨٧ . (١٦) تفسير ابن كثير ٤ / ٢٩٨ .

آتاه عائدٌ على الّذى حاجّ وهو قول الجمهور[١] .

إذ قال إبراهيم : إذ بدل من حاجّ[٢] قال إبراهيم لمّا قال له من ربّك الّذى تدعونا إليه[٣] .

ربّى الّذى يحيى ويميت : فى قوله : الّذى يحيى ويميت دليلٌ على الاختصاص لأنّهم قد ذكروا أنّ الخبر إذا كان بمثل هذا دلّ على الاختصاص فتقول : زيدٌ الّذى يصنع كذا أى المختصّ بالصّنع[٤] وهذا من إبراهيم عن سؤالٍ سبق من الكافر وهو أن قال : من ربّك[٥] يعنى بذلك ربّى الّذى بيده الحياة والموت يحيى من يشاء ويميت من أراد بعد الإحياء[٦] ويخلق الحياة والموت فى الأجساد[٧] واختصّ إبراهيم من آيات الله الإحياء والإماتة لأنّهما أبدع آيات الله وأشهرُها وأدلُّها على تمكّن القدرة[٨] .

قال أنا أحيى وأميت : لمّا ذكر إبراهيم أنّ ربّه الّذى يحيى ويميت عارضه الكافر بأنّه يحيى ويميت و لم يقل أنا الّذى يحيى ويميت لأنّه كان يدلّ على الاختصاص و كان الحسّ يكذّبه إذ قد حيى أناسٌ قبل وجوده وماتوا[٩] ويقال إنّه أحضر رجلين فقتل أحدهما وأرسل الآخر فقال : قد أحييت هذا وأمتّ هذا[١٠] وقيل كان نُمروذ يدّعى الرّبوبيّة[١١] .

قال إبراهيم فإنّ الله يأتى بالشّمس من المشرق فأت بها من المغرب : ذكر الأصوليّون فى هذه الآية أنّ إبراهيم عليه السّلام لمّا وصف ربّه تعالى بما هو صفةٌ له من الإحياء والإماتة لكنّه أمرٌ له حقيقةٌ ومجاز ، قصد إبراهيم عليه السّلام إلى الحقيقة وفزع نُمروذ إلى المجاز وموّه على قومه ، فسلّم له إبراهيم تسليم الجدل وانتقل معه من المثال وجاءه بأمرٍ لا مجاز

---

(١) البحر المحيط ٢ / ٢٨٧
(٢) الجلالين .
(٣) الجلالين
(٤) البحر المحيط ٢ / ٢٨٨ .
(٥) البحر المحيط ٢ / ٢٨٨
(٦) تفسير الطّبرىّ ٣ / ١٧ .
(٧) الجلالين
(٨) البحر المحيط ٢ / ٢٨٨ .
(٩) البحر المحيط ٢ / ٢٨٨ .
(١٠) تفسير القرطبىّ ص ١٠٩٣ وتفسير الطّبرىّ ٣ / ١٧ وتفسير ابن كثير ١ / ٣١٣ .
(١١) البحر المحيط ٢ / ٢٨٨ .

فيه[١] وأردفه بحجّة ثانية فحاجّه من وجهين وكان ذلك قصدًا لقطع المحاجّة لا عجزًا عن نُصْرة الحجّة الأولى[٢] ومجيء الفاء فى فإنّ يدلّ على جملةٍ محذوفةٍ قبلها إذ لو كانت هى المحكيّة فقط لم تدخل الفاء وكان التّركيب : قال إبراهيم إنّ الله يأتى بالشّمس ، وتقدير الجملة والله أعلم : قال إبراهيم إن زعمت ذلك أو موّهت بذلك فإنّ الله يأتى بالشّمس من المشرق . والباء فى بالشّمس للتّعدية تقول : أتت الشّمس وأتى بها الله أى أحياها . ومن لابتداء الغاية[٣] فبُهت الّذى كفر : أى دَهِش وتحيّر[٤] وانقطعت حجّته[٥] وبطلت[٦] وأخرس فلا يتكلّم وقامت عليه الحجّة[٧] وأفحم وبان عجزه وظهر كذبه[٨] وتحيّر وغُلِب[٩] « وبَهُتَ الرّجل وبَهِت وبُهِتَ إذا انقطع وسكت متحيّرًا . عن النّحّاس وغيره . وقال الطّبرىّ[١٠] : وحكى عن بعض العرب فى هذا المعنى : بَهَت بفتح الباء والهاء »[١١] ويقال : بهته وباهته واجهه بالكذب . وفى الحديث : إنّ اليهود قومٌ بُهْت[١٢] قال عزّ وجل : هذا بهتانٌ عظيم ، أى كذبٌ يبهت سامعه لفظاعته[١٣] ويقول أبو حيّان[١٤] : « ويكون متعدّيًا على وزن فَعَل ومنه فَتَبْهَتُهُمْ ، ولازمًا على وزن فَعُلَ كظَرُف وفَعِل كدهش والأكثر فى اللاّزم الضمّ . وحكى عن بعض العرب بَهَتَ بفتح الهاء لازمًا» ولم يمكنه أن يقول: أنا الآتى بها من المشرق لأنّ ذوى الألباب يكذّبونه[١٥].

والله لا يهدى القوم الظّالمين : بالكفر إلى محجّة الاحتجاج[١٦] أى لا يلهمهم حجّةً ولا برهانًا بل حجّتهم داحضةٌ عند ربّهم وعليهم غضبٌ ولهم عذابٌ شديد[١٧].

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ١٠٩٤ .
(٢) البحر المحيط ٢ / ٢٨٨ وانظر الكشّاف ١ / ٢٩٤ .
(٣) البحر المحيط ٢ / ٢٨٩ .
(٤) مفردات الرّاغب الأصفهانى ص ٦٣ والجلالين والبحر المحيط ٢ / ٢٨٥ .
(٥) تفسير القرطبىّ ص ١٠٩٤
(٦) تفسير الطّبرىّ ٣ / ١٧ .
(٧) تفسير ابن كثير ١ / ٣١٣
(٨) البحر المحيط ٢ / ٢٨٩ .
(٩) انظر البحر المحيط ٢ / ٢٨٩
(١٠) تفسير الطّبرىّ ٣ / ١٧ .
(١١) تفسير القرطبىّ ص ١٠٩٦
(١٢) البحر المحيط ٢ / ٢٨٥ .
(١٣) مفردات الرّاغب الأصفهانى ص ٦٣
(١٤) البحر المحيط ٢ / ٢٨٥ .
(١٥) تفسير القرطبىّ ص ١٠٩٤
(١٦) الجلالين .
(١٧) تفسير ابن كثير ١ / ٣١٣ وانظر تفسير الطّبرىّ ٣ / ١٩ .

عنيت آية الكرسيّ بالتّوحيد ، وبيّنت الآية الكريمة التّالية أنّ الدّين عند الله الإسلام ، وقرّرت الآية الكريمة التّالية أنّ الله ولىّ الّذين آمنوا أمّا الّذين كفروا فأولياؤهم الطّاغوت ، وهذه الآية الكريمة الّتى نحن بصددها تتحدّث عن ولىٍّ من أولياء الله تعالى ، ذاكم هو إبراهيم عليه السّلام أبو الأنبياء ، وعن طاغوتٍ من الطّواغيت أولياء الشّيطان الرّجيم ، ذاكم هو نُمروذ الطّاغية الّذى بدّل نعمة الله تعالى كفرًا وأحلّ قومه دار البوار والّذى انتهى به الأمر فيما يقال أن ادّعى الرّبوبيّة فسلّط الله عليه بعوضةً واحدةً من جنده جلّ وعلا الّتى لا يعلمها إلاّ هو دخلت فى منخريه فأهلكته ، ويقال إنّه هو الّذى أمر بإلقاء إبراهيم عليه السّلام فى النّار فنجّاه الله تعالى منها .

والآية الكريمة تخاطب فى مطلعها المصطفى ﷺ بالقول : « ألم تر » الّذى يفيد التّعجيب من هذا الفعل المنكر الّذى أتاه هذا الطّاغية جراءةً على الله تعالى وتطاولاً على مقام النّبوّة والمعنى هل رأيت مثل هذا الّذى حاجّ إبراهيم فى ربّه وكهذا الّذى جادل أبا الأنبياء عليه السّلام فى ربّ إبراهيم عليه السّلام ربّ العالمين حينما سأل الطّاغية إبراهيم عليه السّلام : من ربّك الّذى تدعونا إليه ؟ وذلك بعد أن أنكر إبراهيم عليه السّلام أن يكون الطّاغية ربًّا وإلهًا يعبد من دون الله تعالى وهو المخلوق لله جلّ وعلا ، وهو الّذى لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورا .

وإنّ إبراهيم عليه السّلام الّذى آتاه الله رشده من قبل وأجرى على لسانه الحكمة وفصل الخطاب ليطرح على الطّاغية الّذى ادّعى الرّبوبيّة حقيقةً فيها التّنبيه الكافى لمن ألقى السّمع وهو شهيد إلى خطئه كى يعود إلى بارئه جلّ وعلا يتوب إليه ويستغفره جلّ وعلا وهو الّذى يقبل التّوبة عن عباده ويغفر السّيّئات ويعفو عنها وإن كان الذّنب الّذى تاب العبد منه الإشراك مع الله تعالى غيره أو حتّى الذّنب الّذى ارتكبه النّمروذ وغير النّمروذ من ادّعاء الرّبوبيّة إذا كانت التّوبة إلى الله تعالى نصوحًا وشاء الله تعالى أن يغفر بفضله . وهذه الحقيقة الّتى طرحها إبراهيم عليه السّلام على نُمروذ الطّاغية جليلة الخطر قريبة التّناول تحمل من تدبرها من العقلاء على أن يعود إلى جادّة الصّواب إن كان على خطأ ، وكان ذلك كما جاء فى الآية الكريمة: ﴿ إذ قال إبراهيم ربّى الّذى يحيى ويميت ﴾ أمّا أنّ هذه الحقيقة جليلة

الخطر فلأنّ الله سبحانه وتعالى وحده لا شريك له هو الّذى خلق الموت والحياة وكلّ ما سوى الله تعالى يصحّ فى حقّه قوله عزّ من قائل[١] : ﴿ يا أيّها النّاسُ ضُرِب مَثَلٌ فاستمعوا له . إنّ الّذين تَدْعُون من دونِ الله لن يخلقوا ذُبابًا ولو اجتمعوا له . وإن يسلبهم الذّباب شيئًا لا يستنقذوه منه . ضَعُفَ الطّالب والمطلوب ﴾ وأمّا أنّ هذه الحقيقة قريبة التّناول فلأنّ الطّاغية نفسه يعيش أحد شقيها وهو شقّ الحياة ، وينتظر هذا الشّقىّ الشّقّ الآخر شقّ الوفاة ، وما يرتبط بالوفاة من ملابسات ، وما يلحق الوفاة من بعثٍ فحساب ، ثوابٍ أو عقاب . وإنّ الحياة الّتى يعيشها الطّاغية وغير الطّاغية ينبغى أن تحمله على أن يلقى على نفسه مجموعةً من الأسئلة يكون آخرها : من الّذى أوجدنى من العدم ؟ وسيتبيّن فى أعماقه الحقيقة القائمة من أنّ الله سبحانه وتعالى هو خالقه وموجده من العدم وهو الّذى أحياه وهو الّذى يميته وهو الّذى يبعثه ويحاسبه . والّذى نقص هذه الطّاغية وكلّ طاغية هو العقل لذا لم يؤت طرح هذه الحقيقة على الطّاغية أكله ، بل فجّر فيه طاقةً هائلةً أخرى من غبائه ووقاحته وقلّة حيائه وجراءته على الله تعالى ، وها هو ذا يجىء على لسانه القول : ﴿ قال أنا أحيى وأميت ﴾ .

وهل يجهل النُّمروذ وغير النُّمروذ أنّ المراد بالقول على لسان إبراهيم عليه السّلام : ﴿ ربّى الّذى يحيى ويميت ﴾ ربّى الّذى ربّانى بنعمه وأسبغ علىّ آلاءه ظاهرةً وباطنة والّذى ينبغى علىّ أن أقوم بما يجب علىّ من شكرٍ له جلّ وعلا ، هو وحده الّذى يحيى ويميت ، يبدأ الخلق ويضع نهايةً لحياته ، يوجده من العدم ويميته ؟ لا يجهل النُّمروذ وغير النُّمروذ أنّ هذا هو المعنى المقصود والمتبادر إلى كلّ ذهن ولكنّه الجبروت والطّغيان ، ولكنّه الكبرياء والغرور ، ولكنّه الاستهانة بعباد الله تعالى والاحتقار ، ولكنّه جحود نعم الله تعالى والكفران ، ولكنّه الجراءة على الله تعالى ، والإبانة فى الخصام بالباطل ، ونسيان أصل الخلق من نطفةٍ قليلة القيمة عديمة الشّأن . وها هو ذا النُّمروذ كعادة الطّغاة فى كلّ زمانٍ ومكان يحرّف الكلم عن مواضعه ، ويصرف القول عن وجهه ، ويفسّره بغير معناه ، ويفرّ من حقيقته إلى مجازه ، ويهرب من قريب معناه وواضحه ومستقيمه إلى بعيد

---

(١) سورة الحجّ ٧٣ .

معناه وغامضه ومعوجّه . إنّه بدلاً من أن يستفيد من كلمة الحقّ الّتى تجرى على لسان إبراهيم عليه السّلام وتنبّهه إلى الخطأ الشّنيع الّذى ارتكبه والجرم الفظيع الّذى أتاه حينما شارك الرّبّ فى علاه وزعم أنّه هو الآخر يحيى ويميت وفق منطقه السّقيم وفهمه العليل ونظره القصير ، إنّه بدلاً من أن يتوب إلى الله تعالى مِنِ ارتكاب الذّنب الّذى لا يغفره الله تعالى وهو الإشراك معه جلّ وعلا سواه ، بل مِنْ تجاوزه كلّ حدود الجنون إلى الزّعم بأنّه ربّ : « كبرت كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلاّ كذبا » هو يعمّق هذه الأكذوبة بالزّعم أنّه هو الآخر يعمل ما يعمله ربّ إبراهيم عليه السّلام من إحياءٍ وإماتة . والحقيقة أنّا نتبيّن من القول الّذى جرى على لسان النّمروذ الطّاغية : ﴿ أنا أحيى وأميت ﴾ وذلك بالمقارنة بين هذا القول على لسان الطّاغية وبين القول على لسان إبراهيم عليه السّلام : ﴿ ربّى الّذى يحيى ويميت ﴾ نتبيّن اعترافًا ناطقًا من أعماق الطّاغية ولكن بغير لسان بأنّه يقول ما لا يعتقده ، إنّما بقصد أن يخدع المغرورين من أتباعه به المخدوعين عن حقائق أقدارهم ، موهمًا إيّاهم بما يعمّق من قوّته الظّاهرة وجبروته غير ذى الحدود . إنّا نتبيّن الاختصاص فى القول على لسان إبراهيم عليه السّلام : ﴿ ربّى الّذى يحيى ويميت ﴾ بينما لا نتبيّن شيئًا من ذلك فى القول : ﴿ أنا أحيى وأميت ﴾ بدليل صرف معنى الإحياء والإماتة عن حقيق معناه إلى مجازه عن أوّل معناه إلى متعلّقه ، وها هو ذا يأتى بشخصين اثنين فيأمر بقتل أحدهما وهذا هو فهم الإماتة فى فكره العليل ونظره السّقيم ويعفو عن الآخر وهذا هو فهم الإحياء عنده وهو الّذى يظنّ أنّ إبراهيم عليه السّلام واحدٌ من أولئك الّذين ينطلى عليهم هذا الادّعاء أو الّذين يتظاهرون لأغراضٍ دنيويّة رخيصةٍ خسيسة بأنّ ادّعاءه قد جاز عليهم . وهل يعجز إبراهيم عليه السّلام الّذى آتاه الله رشده من قبل والقدرةَ على الجدل عن أن يصحّح لنُمروذ خطأه ؟ لا يعجز بطبيعة الحال ولكنّه عليه السّلام ، بإلهامٍ من الله تعالى ، آثر أن يتحوّل إلى مثالٍ آخر وإلى حجّةٍ أخرى من جنس الدّليل ، وفى لزوم الحجّة النّمروذَ فى الثّانية لزومٌ له فى الأولى ، وفى عجزه فى الثّانية عجزٌ عن حقيقة الأولى الّتى فرّ منها إلى مجازها . وها هو ذا إبراهيم عليه السّلام يجىء على لسانه القول : ﴿ قال إبراهيم فإنّ الله يأتى بالشّمس من المشرق فأتِ بها من المغرب فبُهِت

الّذى كفر ﴾ .

وأوّل ما يلفت النّظر بشأن الجزئيّتين الكريمتين اللّتين جرتا على لسان إبراهيم عليه السّلام أبى الأنبياء لفظ « ربّ » فى الأولى ولفظ الجلالة « الله » فى الثانية . جاء فى الأولى القول : ﴿ ربّى الّذى يحيى ويميت ﴾ وجاء فى الثّانية القول : ﴿ فإنّ الله يأتى بالشّمس من المشرق فأت بها من المغرب ﴾ .

ونستطيع أن نوجز القول بشأن استعمالات القرآن الكريم للفظتى « ربّ » و « الله » أنّ لفظة ربّ لا تستعمل فى القرآن الكريم إلاّ فى مواقف الخصوص ، وحينما يراد التّنبيه إلى نعم الله تعالى على عباده وتربيته جلّ وعلا لهم بآلائه ، وحينما يراد تنبيه العباد إلى ما يجب عليهم من شكرٍ لله تعالى على تلك النّعم والآلاء ، وحينما يكون الجوّ عابقًا بشذا الرّضا والامتنان . كما أنّا نستطيع أن نقول بشأن لفظ الجلالة « الله » إنّه لا يستعمل إلاّ فى مواقف العموم والمناسبات الّتى تتّسم بالرّوح الجماعيّة الشّاملة .

فى ضوء التّفريق بين لفظ الرّب ولفظ الجلالة « الله » نستطيع أن نفهم ملابسات الخصوص الّتى ينمّ بها لفظ الرّبّ ، وقد عمّق من هذا الخصوص ضمير المتكلّم العائد على إبراهيم عليه السّلام واللّاحق بلفظ الرّب : ﴿ ربّى الّذى يحيى ويميت ﴾ وكأنّ إبراهيم عليه السّلام الّذى يجيب الطّاغية على سؤاله : من ربّك يا إبراهيم ؟ يريد أن يلمّ أطراف الموضوع ويجمع شتات المسألة بأن يعود الطّاغية إلى ربّه جلّ مربّيه بنعمه وآلائه وأن يشكر لله تعالى تلك النّعم والآلاء وأن يقوم بما يجب عليه ابتداءً من التّوبة إلى الله تعالى توبةً نصوحًا وإفراد هذا الرّبّ بالعبادة الخليق بها وحده جلّ وعلا لا شريك له . وكأنّ جوّ الخصوص الّذى يشعّ من القول على لسان إبراهيم عليه السّلام وجوّ الرّضا الّذى تفوح رائحته ويتضوّع شذاه يجعل كلام إبراهيم عليه السّلام الأوّاه الحليم أشبه بالهمس للطّاغية كيلا يستثير ثائرته وكيلا تأخذه العزّة بالإثم . ولكنّ الطّاغية كسائر الطّغاة لم يزدد بلين القول وخفض الجناح إلاّ عتوًّا واستكبارا . وجريًا على ما اعتاده الطّاغية هو وأمثاله من الطّغاة من التفاف شرذمةٍ حقيرةٍ من جنسه به لا تأتمر إلاّ بأمره بكلّ منكر ولا تنتهى إلاّ بنهيه عن كلّ معروف ، وتجيز له كلّ استخفافٍ بها واستغفالٍ لها ، حاول الطّاغية أن يجرّب

حظّه مع إبراهيم عليه السّلام أبى الأنبياء موهمًا بأنّه هو الآخر يحيى ويميت وفق فكره السقيم وبصره الكليل ونظره القصير . أما وقد أصرّ الطّاغية على موقفه ، واتّخذ من كلام إبراهيم عليه السّلام الرّطب ومنطقه العذب ولين جانبه وخفض جناحه ذلك الموقف الّذى يحتاج معه إلى مواصلة المشوار وإرداف الحجّة بأختها والمثال بأخيه والتحوّل — فى ضوء موقف الخصم — من دائرة الخصوص إلى ميدان العموم فقد جاء على لسان إبراهيم عليه السّلام القول : ﴿ قال إبراهيم فإنّ الله يأتى بالشّمس من المشرق فأت بها من المغرب ﴾ وإنّه بالمقارنة بين الحياة والموت فى قول إبراهيم الأوّل وبين الشّمس فى قول إبراهيم الثّانى يتبيّن أنّ الحياة والموت وإن كانا موجودين حيث وجدت المخلوقات فإنّ الحياة والموت مهما كانا من الذّيوع والانتشار فإنّهما لا يقاسان بالشّمس بحالٍ من الأحوال الّتى لا تترك مكانًا فى الكرة الأرضيّة إلاّ وتصل إليه بذاتها عن طريق إرسال ضوئها مباشرة . وهل يستطيع نبأٌ مهما جلّ وخطبٌ مهما عظم إلاّ أن ينتقل ويعمّ بواسطة غيره وبمساعدة سواه ؟

وهكذا يتبيّن العموم والشّمول فى القول على لسان إبراهيم عليه السّلام : ﴿ قال إبراهيم فإنّ الله يأتى بالشّمس من المشرق فأت بها من المغرب ﴾ وهما عمومٌ وشمولٌ يسعف على تحقّقهما ذكر المشرق والمغرب وجملة أتى الدّالّة على البُعْد ، وبهذا يغطّى الحديث كلّ حركة الشّمس منذ لحظة البزوغ وحتّى لحظة الأفول . وحينما نعلم أنّ هذه الكرة الأرضيّة ليس فيها كلّها فى آنٍ واحد ليلٌ مطلق ولا نهارٌ مطلق ، فإن كان فى الموضع الّذى أنا فيه الشّمس بازغة فإنّها تكاد تكون فى المكان المقابل من الكرة الأرضيّة آفلة ، وفى كلّ الأحوال تظلّ الشّمس تأتى من المشرق إلى أن يأذن الله تعالى بغير ذلك ، حينما نعلم ذلك نتبيّن أنّ حجّة إبراهيم حجّةٌ حيّةٌ عاشها إبراهيم عليه السّلام وعاشها نُمروذ الطّاغية وعاشتها وتعيشها الأجيال إلى أن يشاء الله سبحانه وتعالى للسّماء أن تنفطر وللكواكب أن تنتثر وللشّمس أن يذهب ضوؤها وتنطفئ نارها ، إيذانًا بقيام السّاعة .

أما وقد سَبَقَ إلى روع الطّاغية أنّ زعمه الإحياء والإماتة يجوز على إبراهيم وبذلك تفوق حجّته حجّة إبراهيم أو تتساوى معها ، إما وقد داعبه ذلك الأمل وغالبه ذلك الرّجاء

وسوّلت له نفسه ذلك الأمر وزيّن له الشّيطان الرّجيم سوء عمله ، وكأنّ نفسه أخذت تمتلئ غبطة بطلائع الظّفر فى هذه المسألة المصيريّة بالنّسبة له والّتى يوقن فى أعماقه أنّه مبطلٌ فيها كاذبٌ على الله تعالى وعلى عباد الله تعالى ، أما وقد حدث كلّ ذلك فإنّ حجّة إبراهيم الثانية المفحمة قد قلبت كيان ذلك الطّاغية رأسًا على عقب ، وليس فى اللّغة العربيّة الجملة الّتى تقترب من جملة بهت فى أداء المعنى المراد وتبيين انقلاب مشاعر الطّاغية رأسًا على عقب وارتطام أمانيه فى سقوطها منقلبةً على الصّخرة الصّلدة لحجّة إبراهيم عليه السّلام الّذى آتاه الله الرّشد وهو صبىّ ومنحه فصل الخطاب .

إنّ الطّاغية مدفوعًا بطغيانه وجبروته مدعومًا بحمقه ووقاحته كان فى حكم الواثق بغلبة حجّته وانتصار موقفه ، وفى مثل قوّة اندفاع الطّاغية انقلب على عقبيه ، بل عاد على حافرته بأسرع من إقباله مندفعًا ، مع ما رافق ذلك الانقلاب وتلك العودة من فظاعة الارتطام وهول الاصطدام وسوء المنقلب وخيبة المسعى وسقوط الحجّة وعار الهزيمة .

وكى نتبيّن بعض ما انتاب الطّاغية من ذلّ وقد أهانه الله تعالى نحن بحاجةٍ إلى أن نقف على بعض مدلولات جملة بهت . وإنّ من أقرب الألفاظ المسعفة لنا لفظة بهتان الّتى جاءت مثلاً فى أثناء الحديث عن الإفك فى قوله تعالى[١] ﴿ ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلّم بهذا سبحانك هذا بهتانٌ عظيم ﴾ وجملة تبهت فى قوله عزّ من قائل[٢] : ﴿ لو يعلم الّذين كفروا حين لا يكفّون عن وجوههم النّار ولا عن ظهورهم ولا هم يُنْصَرون . بل تأتيهم بغتةً فتبهتهم فلا يستطيعون ردّها ولا هم ينظرون ﴾ إنّ البهتان هو الكذب الفظيع الّذى يفغر له سامعه فاه دهشةً وتبلّدًا وحيرة . وإن القول « فتبهتهم » بمعنى أنّ القيامة حينما تجىء يدهش لها الكافرون ويتحيّرون ويتبلّدون ولا يعرفون ماذا يعملون ولا كيف يتصرّفون .

إنّ هذه الملابسات كلّها وغيرها ممّا يعجز عن التّعبير عنه القلم قد أفرغت على الطّاغية الّذى تصفه الآية الكريمة بالكفر : « فبُهِت الّذى كفر » ويندرج تحت الكفر سائر أنواعه ابتداءً بجحود الله سبحانه وتعالى وانتهاءً بجحود آلائه .

---

(١) سورة النّور ١٦ (٢) سورة الأنبياء ٣٩ ، ٤٠ .

وفى التّذييل يوصف الطّاغية بالظّلم إضافةً إلى الكفر : ﴿ والله لا يهدى القوم الظّالمين ﴾ بمعنى أنّ الله سبحانه وتعالى لا يوفّق أولئك الظّالمين ولا يسدّد خطاهم ولا ينصر لهم حجّةً ولا يؤيّد لهم دليلاً بل يخذلهم فى كلّ المواقف ويلحق بهم الخزى فى كلّ المواطن . وفى المقابل ينصر الله سبحانه وتعالى أولياءه ويعزّ جنده وقد قال عزّ من قائل[١] : ﴿ ذلك بأنّ الله مولى الّذين آمنوا وأنّ الكافرين لا مولى لهم ﴾ وقال تعالى[٢] : ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين . إنّهم لهم المنصورون . وإنّ جندنا لهم الغالبون ﴾ وقال تعالى[٣] : ﴿ إنّا لننصر رسلنا والّذين آمنوا فى الحياة الدّنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ وقال تعالى[٤] : ﴿ وكان حقًّا علينا نصر المؤمنين ﴾ .

الآيــة رقــم (٢٥٩)

قال تعالى : ﴿ أو كالّذى مرّ على قريةٍ وهى خاويةٌ على عروشها قال أنّى يحيى هذه اللهُ بعد موتها فأماته الله مائةَ عامٍ ثمّ بعثه . قال كم لبثت ؟ قال لبثتُ يومًا أو بعض يوم . قال بل لبثتَ مائة عامٍ فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنّه ، وانظر إلى حمارك ولنجعلك آيةً للنّاس . وانظر إلى العظام كيف نُنْشِزُها ثمّ نكسوها لحما . فلمّا تبيّن له قال أعلم أنّ الله على كلّ شىءٍ قدير ﴾ .

أو كالّذى مرّ على قرية : أو للعطف حملاً على المعنى والتّقدير عند الكسائى والفرّاء : هل رأيت الّذى حاجّ إبراهيم فى ربّه أو كالّذى مرّ على قرية[٥] أو رأيت[٦] أو أرأيت مثل الّذى مرّ فحذف لدلالة لم تر عليه لأنّ كلتيهما كلمة تعجيب[٧] أو أرأيت كالّذى حاجّ[٨] وقرأ الجمهور أو ساكنة الواو . قيل : ومعناها التّفصيل وقيل التّخيير فى التّعجيب من حال من ينشأ منهما[٩] .

---

(١) سورة محمّد ١١
(٢) سورة الصّافّات ١٧١ — ١٧٣ .
(٣) سورة غافر ٥١
(٤) سورة الرّوم ٤٧ .
(٥) تفسير القرطبىّ ص ١٠٩٦
(٦) الجلالين .
(٧) الكشّاف ١ / ٢٩٤
(٨) البحر المحيط ٢ / ٢٩٠ .
(٩) البحر المحيط ٢ / ٢٩٠ .

والمشهور أنّ الّذى مرّ على القرية هو عزير فيما روى عن ابن عبّاس والحسن وقتادة والسّدّى وسليمان بن بريدة وأبى العالية والرّبيع وعكرمة والضّحّاك وناجية بن كعب وسالم الخوّاص وسعيد بن جبير وغيرهم(١) .

على قرية: قال وهب بن منبّه وقتادة والضحّاك والرّبيع وعكرمة: القرية بيت المقدس لمّا خرّبها بختنصّر البابلى(٢) وكان واليًا على العراق(٣) ويقول الزّمخشرىّ(٤): «والمارّ كان كافرًا بالبعث وهو الظّاهر لانتظامه مع نمروذ فى سلك ولكلمة الاستبعاد الّتى هى: أنّى يحيى » .

وهى خاويةٌ : وهى خاليةٌ من أهلها وسكّانها(٥) وأصل الخواء الخلّو ، يقال : خَوَت الدّار وخَوِيَتْ تَخْوى خواء (ممدود) وخُوِيًّا : أقْوتْ وكذلك إذا سقطت ، ومنه قوله تعالى : فتلك بيوتُهُمْ خاويةً بما ظلموا ، أى خالية ، ويقال ساقطة ، كما يقال : فهى خاويةٌ على عروشها ، أى ساقطة على سقُفها . والخواء الجوع لخلوّ البطن من الغذاء(٦) عن السّدّى : وهى خاويةٌ على عروشها يقول : ساقطة على سقفها(٧) أى سقطت السُّقف ثمّ سقطت الحيطان عليها ، واختاره الطّبرىّ(٨) يقال : خَوىَ البيت انهدم لأنّه بتهدّمه يخلو من أهله(٩) .

والعروش جمع العريش(١٠) والعريش : سقف البيت وكلّ ما يتهيّأ لِيُظلّ أو يُكنّ فهو عريش ، ومنه عريش الدّالية ، ومنه قوله تعالى : وممّا يعرشون(١١) وفى الحديث لمّا أمر ببناء المسجد قالوا نبنيه لك بنيانًا قال : لا بل عرشٌ كعرش أخى موسى فوضعوا النّخل

---

(١) تفسير ابن كثير ١ / ٣١٤ وانظر تفسير الطّبرىّ ٣ / ١٩ وتفسير القرطبىّ ص ١٠٩٧ والبحر المحيط ٢ / ٢٩٠ .

(٢) تفسير القرطبىّ ١٠٩٨ وانظر تفسير الطّبرىّ ٣ / ٢٠ وتفسير ابن كثير ١ / ٣١٤ وتفسير القرطبىّ ١٠٩٧ والجلالين والكشّاف ١ / ٢٩٥ .

(٣) تفسير القرطبىّ ١٠٩٧ والبحر المحيط ٢ / ٢٩١ .

(٤) الكشّاف ١ / ٢٩٤

(٥) تفسير الطّبرىّ ٣ / ٢١ .

(٦) تفسير القرطبىّ ١٠٩٨

(٧) تفسير الطّبرىّ ٣ / ٢١ .

(٨) تفسير القرطبىّ ١٠٩٨ وانظر تفسير الطّبرىّ ٣ / ٢١ .

(٩) البحر المحيط ٢ / ٢٨٥ وانظر ص ٢٩١ .

(١٠) القاموس المحيط « عرش » .

(١١) تفسير القرطبىّ ص ١٠٩٨ .